اتحاد الكتاب العرب

الفواصل

أحمد عودة

قصص قصيرة

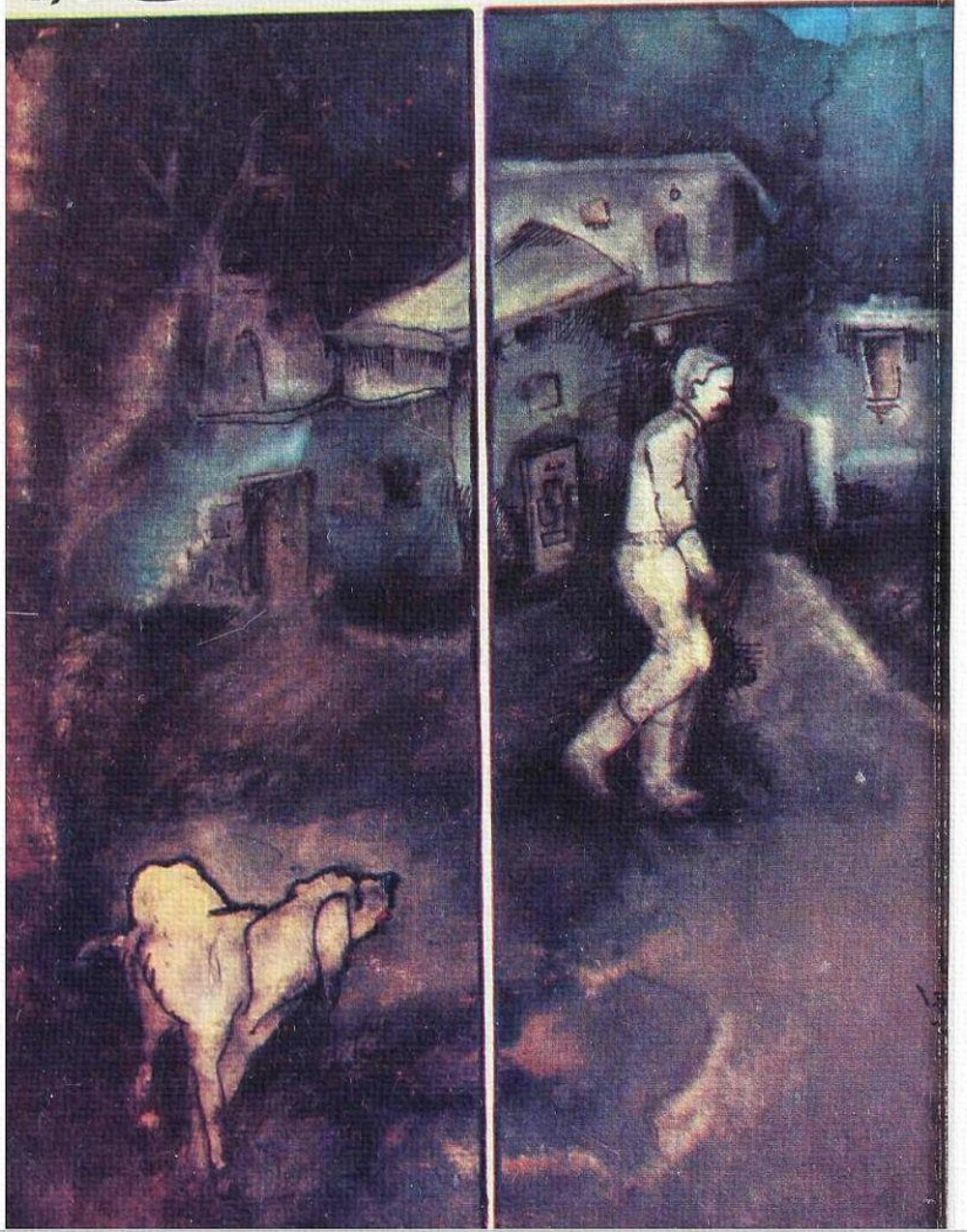

الفَواصِل

قصص قصيرة

الفَواصِل

أحمد عودة

الأعمال الكاملة (5)

الطبعة الثانية:

دارُ الجيل العربي للنشر والتوزيع.

2022م.

Mobile : 8789591 79 00962

e-mail: aljeelalarabi@yahoo.com

مراجعة وتحقيق: مظهر عاصف.

تصميم الغلاف: سمير الكرّاد.

جميعُ الحقوق محفوظة للجمهور.

تنويه عابر:

يُسمحُ للقارئ بإعادة إصدارِ هذا الكتاب وأيِّ جزءٍ منه أوتخزينه واستنساخه ونقله، كليّا أو جزئيا، وفي أيِّ شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونيّة أو آلية، أو الاستنساخ الفوتوغرافي، والتسجيل واستخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، ولا يلزم الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر بناء على رغبة المُحقّق.

تعريف بالكاتب:

هو الأديبُ الأردني الراحل «أحمد عودة» من مواليد قرية إذنبَّة -الرملة- فلسطين المحتلّة- عام 1945. ويُعد أحد أعمدة رابطة الكتاب الأردنيين، وأحد مؤسسيها الأوائل، وعضو في اتحاد الكتّاب العرب منذ عام 1982. احترفَ كتابةَ القصة والرواية ونصوصِ المسرح قبل احترافه كتابة المسلسلات المتلفزة، ويعتبرُ من روّاد المشهد الثقافي الأردني فقد كانَ يرفدُ الصحف والمجلات الأردنية والعربية بمقالات نقدية أدبية، وببعض البحوث الفكرية واللغوية.

تمَحوَرت أعمالُه الورقية حول القضية الفلسطينية بشكل كبير، وإن تطرَّق من خلالها لكينونة الإنسان وعلاقته مع الأرض والآخر في كل مكان، ناهيك عن قضايا الأمة العربية بمجتمعاتها وهمومها المشتركة، وامتازت لغتُه العربية بالجزالة السلسلة كانعكاسٍ تام لمهنتهِ التي مارسها كمدرسٍ لَها في مدارس القدس وعمّان حتى تقاعده، وتفرّغه الكامل للإنتاج الأدبي.

الأديبُ من أوائل الروائيين العرب الذين اتجهوا لكتابة المسلسلات التلفزيونية مواكبةً منهم لعصر الصورة والصوت، ومن الرّواد الذين نقلوا اللهجة الأردنية العامية والريفية والبدوية عبر مسلسلاتهم إلى الشاشات العربية.

هذا وقد مارس الكتابةَ الإبداعية طوال حياته قبل أن توافيهِ المنية في «حي الربوة- ماركا الجنوبية- عمان- الأردن». في مساء 9 نيسان من عام 2016م.

مؤلّفاته الورقيّة "الطبعة الأولى":

حين لا ينفع البكاء- قصص- عمان- مكتبة الشرق- 1973.

زعتر التل- قصص- عمان- رابطة الكتاب الأردنيين- 1979.

المنعطف- قصص بغداد- وزارة الثقافة- 1980.

الولادة والموت- قصص- دمشق- اتحاد الكتاب -1982.

جمجوم- قصص- بغداد- وزارة الثقافة والإعلام- 1982.

ساعات الصفر- رواية- بيروت- دار الوحدة- 1983.

الفواصل- قصص- دمشق- اتحاد الكتاب العرب- 1984.

الكلب المخدوع- قصص للفتيان- عمان- دارابن رشد- 1986.

عيون المدافع- قصص- دمشق- اتحاد الكتاب العرب- 1995.

الفخ- قصص- عمّان- وزارة الثقافة- 1996.

الباشكار- رواية- عمّان- دار الينابيع- 1996.

مسرحيات:

الكنـــــز.

أصـل المسألـة.

شلــة الأنـس.

أفلام تلفزيونية:

المريض.

عذابـات حلُّـوم.

طلقـة الرحمـة.

الانتظـار.

أهم المسلسلات المُتلفزة:

ويبقـى الأمـل- باللهجة الأردنية.

الفـرح المنسـي- باللهجة الأردنية.

الحائـــــر- باللهجة الأردنية.

حـــارة الزيـن- باللهجة الأردنية.

الريحانيـــة- باللهجة الأردنية.

خط النهاية- باللهجة الأردنية.

خــط البدايـة - باللهجـة السعودية.

الزمـــن دوار- باللهجة السعودية.

مرايــا الحـب- باللهجة المصرية.

هـذا قـراري- باللهجة السورية.

الأمانــي المـرّة- باللهجة السورية.

الفهرس:

مقدّمة:.....1

في تلكِ الأيّام.....6

خرافُ العيد.....15

قهوةُ المدفع. 26

عنقُ الزجاجة.....34

الأبيض.....45

المعادلةُ الصعبة.....54

أشياء أخرى والخجل 68

الوجهُ الثاني 77

خط البداية 84

مولدُ الفرح 92

مشاتلُ الخوف 99

الفواصل 107

المِعطف 111

مقدّمة:

حين شَرعتُ بإعادة طباعةِ وتحقيقِ أعمالِ الأديب الراحل «أحمد عودة»؛ لم أعثر على هذه النسخة بين رفوفِ مكتبتهِ أو في حوزةِ أحدٍ مِن معارفهِ وأصدقائه؛ لذا تواصلتُ مع «مكتبة اتّحاد الكتّاب العرب- دمشق» بصفتها الناشر الأول لهذا العمل، غيرَ أن أمين المكتبةِ جرّاء نقل المكتبة إلى مكان آخر على خلفية الحرب الآثمة في مُدن الياسمين، وقف عاجزًا عن مساعدتي.

أوكلتُ بعدها مهمّة البحث لصديقةٍ دمشقيةٍ قامت مشكورةً بزيارة المكتبة؛ في موقعها الجديد المؤقت _إن لم تخنّي الذاكرة_ والبحث لعدّة أيام بمساعدة أمين المكتبة وسط جبال من الكتب التي لم تُرتّب بعد؛ دونَ أن يسفرَ البحث عن ضالتي.

قادني ضياعُها للبحث عنها جاهدًا في عدّة مكاتب عامّة ثم عبرَ الفهارس الرقمية للمكتبات العربية؛ حتى تعثّرَت عيناي بعد سنتين باسم المجموعة مصادفةً، وقد تواجَدت في مكتبة «مركز جمعة الماجد- دبي الإمارات العربية».

تواصلتُ مع المكتبة على الفور لتضافَ إلى سعادتي سعادةٌ أخرى حين أكّدَت لي الموظفةُ الكريمة برقيّها وأدبِها الجمّ تواجدَ المجموعة الورقية لديهم، ثم تبرّعهم واستعدادهم بشكل عام بتصويرها وإرسالها عبر البريد ضمن لفتةٍ فكرية وثقافيةٍ نادرة قد لا تجدها حقيقة في أرقى المكتبات الأخرى. ولعلَّ اللهفةَ قبل العجَلة مَن دفعتني إلى الاتصال بصديقٍ مقيم في مدينة «دبي» والطلب منه أن يتسلّمَ النسخةَ المصوّرة ويرسلَها لي على الفور.

احتفظتُ بعد ذلك بها لحين الشروع بإعادة طباعتها وتحقيقها، والتي اكتشفتُ بعد وقوفي على ما فيها من قصصٍ أن خمسَ قصص داخلها سبقَ وأن نُشرت في «جريدة الرأي الأردنية - 1979-1983م» فساعدني ذلك على التأكّد من أي جملةٍ غير واضحة أو مشكوكٍ فيها على الرغم أن النسخة المصوّرة بدت بحالةٍ ممتازة باستثناء هفوات قليلة لا تذكر. ثم عاودتُ أثناء شروعي بالعمل بعدَ سنوات أربع التواصلَ مع المركز الموقّر؛ طالبًا من موظفٍ لبقٍ آخر أن يزوّدني بصورةٍ ملوّنة عن غلاف الكتاب، ولم تمضِ ساعةٌ حتى زوّدني مشكورًا بها لأرفقها بالعمل المطبوع.

وكما أشرتُ سابقًا فقد تمت طباعةُ النسخةِ الأولى من هذه المجموعة ضمن منشورات اتحاد الكتاب العرب 1984م؛ بيد أني لم أُشر أن قلمَ الأديب في مجموعة الفواصل يسيلُ رقّةً

وعذوبةً وحزنًا فريدًا؛ يتناغمُ بالكامل مع الألمِ الصادقِ النابعِ من قساوة اللجوء المتجذّر في نفسه بصفته ابنًا بارًّا للقضية الفلسطينية.

بدا لاجئًا لائذًا بالخيام التي تودُّ الريحُ اقتلاعها من جذورها؛ لا لأنه الرملاوي الذي في قصة «خط البداية» قد سلّطَ الضوء على لفتةٍ عابرة من حادثةٍ اعتاشها وعاشَت في ذاكرته حتى آخر يومٍ في حياته، بل لأنّ القارئ سيتجوّل في أزقّة المخيم المتخم بكافّة أنواع اللاجئين والمهجّرين من ديارهم؛ بعد أن يقودَه الكاتبُ بواقعيّة فريدة وحيادية إلى التعرّف على الشرائح المقموعة؛ ثم إلى الشريحة التي امتصت حاجاتهم الأساسية بلا رحمة بعيدًا عن الشعارات الوطنية العريضة التي لم يكن يؤمن إلا بالصادق الصدوق منها.

ربّما تنتمي هذه المجموعة بروحها المتعبةِ لأدب المقاومة، لكنها حتمًا تنتمي بجميع سطورها الموجعة لأدبِ الصمود خاصّة وللقضية بعموميتها؛ تنتمي للأسرة والمجتمع الفلسطيني، لأن غير الفسلطيني ممن لا يعرفُ طقوسَ وكالة الغوث ونواميس المخيم وأزقّته يحتاج لذاكرة (جوجل) للتعرف على بعض المفرادت الخاصة بالقاموس الفلسطيني؛ ككرتِ المؤن أو البُقج أو جبل التجربة أو البيض بالمرجرين أو القمباز، بيد أن الفقرَ والجوعَ الذي عرّاهما الكاتبُ بالكامل عبر لغةٍ انسيابية تتقاطرُ منها الصور الشعرية المُبتكرة الفريدة؛ بشكلٍ يصدمُ المتذوقَ من جمعه للألم والجمال في آن

واحد؛ قد يشملان جميع الشعوب المسحوقة تحت نير الحروب أو الاستعمار.

اللغةُ الدافئة الشلّالُ تتدفقُ من جميع القصص إلى بحر النهايات المفتوحة، دلالةً أن القصةَ الواحدةَ كالجرح الفلسطيني الذي لم يلتئم بعد، دلالةً أن الجيلَ الأول ألقى رحيلَه وترحالَه على كاهلِ الجيل الثاني فالثالث أملًا أن يخطَّ الأخيرُ نهاياتٍ بقَفلاتٍ محبوكةٍ تقود جميعُها للعودة إلى نقطة البداية.... نقطة الوجود الأزلي.

لذا قد ترى فلسطينَ في هذه المجموعةِ قلبًا، أو ذاكرةً، أو وجهًا، أو حلمًا، أو قصيدةً كسرَت قيودَ الوزن والقافية، لكنَّ إحساس الكاتب الذي سينقلُه لك عبر حروفه سيقودك لمعرفةِ معاني ودلالات حروفها الخمسة، حيث الفلسطيني بسيكولوجيته وانفعلاته «قبل وبَعد» وكذا الأرض بثقافاتها وموروثاتها التي تُحرّض الفلسطيني على نقشِ اسم قريته ومدينته على شاهدِ قبره حتى وإن واراه الثرى على المريخ.

مظهر عاصف

في تلكَ الأيّـام

زامَت الخيامُ. ترنَّحت واضطربت. لم تقع زلزلةٌ ولا حلَّ يومُ الحشر. انزلقَت من بطونها الخاوية رؤوسٌ وأقدامٌ عارية لاتعبأ بالشوك؛ أو الحصى المُدبَّب. كانت لي خبرةٌ في حالة مماثلة حتى قبل أن أسمعَ الهمسَ المذعور «جاءت لجنة الإحصاء».

تعبّأتُ بالذعر فلم أسمع هديرَ السيارة البيضاء إذ توقّفت أمامَ خيمة متباهيةً ببطنها المنتفخة؛ ورأسِها المرفوع فوق بقيّة الخيام... إنّها خيمةُ المختار، وتلك سيارةُ وكالة الغوث، أما نحن فلاجئون.

خرجَ أبي فارعًا دارعًا يستصرخُ أخوتي المُبعثرين على التراب مع الصبية كالنمل. ولما كنتُ الأكبرَ والأقربَ إلى يده أفرَغَ غيظَه على وجهي؛ ودفعني إلى الداخل. احتجزتني أمي بين ذراعيها كيلا أتبعثرَ فيتعبها جمعي من جديد. شدَّتني إليها بقوة فكدُت أصرخُ من فرط الألم. ضغَطَت شفتَها السفلى مُحذِّرةً.

- إيّاك أن تُحرجنَا كالمرة السابقة.

انهالت في رأسي وقائعُ تلك الحادثة. أخرجتُ أبي عن طوره مُقسمًا بالطلاق أن سيذبحني على صخرة كبيرة في مدخل المخيم؛ فأكونُ بذلك عبرةً للأولاد ممن لا يسمعون الكلام.

كان سيفعُلها حقّا لولا أن تدّخل الرجالُ وأقنعوه بأني وإن كنتُ أكبرَ أولاده؛ إلا أنني ما زلتُ طفلا في العاشرة. تعهَّدوا له أنْ سأصحح غلطتي في المرة القادمة. سدَّدَ إليّ نظرة هائلة وهو يقرفص أمام الخيمة.

ـ هذا إن كانت هناك مرة أخرى.

ذبحتني سحنتُه الشاردة وزفراتٌ تفورُ من صدره فيطلقها زوابعَ لاتهدأ. أدركتُ أني قد اجترحتُ ذنبا فظيعًا أستحقُ عليه الذبح. لقد كان مُقدّرًا له أن يتسلّمَ بطاقةَ إعاشة بتسعةِ أنفار بدلا من ثمانيـة؛ لو لم أنسَ ما حشا به رأسي قبل أن تقتحمَ لجنـةُ الإحصاء خيمتنا كالقدرِ المحتوم.

تناوبَ وأمي على أخوتي مُحذّرين.

ـ ها... محمود ابن جارناه «أبو محمود» اسمه حسن... ها... محمود اسمه حسن. لا تنسـوا.

وسـدَّدَ أبي إلى أخي الأصغر نظرةَ تهديد ووعيد قائلًا بألطفِ ما استطاع.

ـ ما اسم محمود ابن جارنا «أبو محمود»؟

ردّ بسرعة.

ـ محمود اسمه حسن... حسن... حسن.

ربتَ عليه برضا وقبّلتـه أمي بامتنان فاستطعتُ أن أرى أمَـارات الـزهـو تمرحُ على وجهـه الصغير؛ وقـد أتى أمرًا مدهشا للغاية، أما أنا فلم يؤّكدا علي كثيرا في هذه المسألة؛ فأنا الأكبر الذي خدعتهُما فطنتي، إذ يختال أبي لها كلما صادَفه الأستاذ وأهال عليّ المـديـحَ أطنانا لذكائي ونـجابتي.

لم يحسبا حسابا لذاك الخط الفـاصـل بين الصـدق والكذب، ولم يأبها كثيرا لما كانا يرددانه باستمرار حول الجنة والنار التي يتوزّع عليها الصادقون والكاذبون. النارُ بالذات كما عرفتُها أكبر بكثير من الفرن الذي تلقي أمي إليه بخبز الذرة، أما الجنة ففيها فاكهةٌ وأعناب أشهى بكثير من تلك التي نتفرج عليها في أيدي أطفالٍ لم يعرفوا مثلنا ملامحَ الخيام .

الحقيقة إنَّ ما حدث وسبّبَ لأبي الغضب ولأمي الحزن، لم تتـدخـل فيـه الجنة أو النار. فالعفويةُ مَن رفعت رأسها فجأة دون سابقِ إنذار، ركبَت لساني فصرخت بمحمود حال اقتَحَمت اللجنةُ علينا الخيمة.

- محمود! ارفع يدَك من الشَق.

صوّب أبي إلي نظرة ناريّة شممتُ على إثرها رائحةَ لحمي المحترق. أدخلتني عيناه إلى بئر مظلمة. أغلقَها عليَّ وعاد يبتسم في وجـهِ رجـال اللجنة إذ ظن أنهم لم يسمعـوني. هكذا ظننتُ بدوري فخرجتُ من البئر أعبّ الهـواءَ بصـدر ذبيـح

فيما عيناي على محمـود؛ ويدُه تتجول في الشَق طولًا وعرضا. يتمزقُ القماش المهترئ بصوت مسموع؛ فيدحرجُني تمزّقُه البغيضُ على صخـر ناتئ.

أدهشني أن تطـربَ أمي وتبتسمَ للصبيّ وقد اعتادت أن تضـربنـا كلما دنونا سهوًا من الشق؛ أو جَنباتِ الخيمة. تحلّقنا من حول اللجنة دائرةً مُحكمة. حاول أبي أن يقدّمنـا بأسمائنا. أشاروا له بقسوة أن يسكت محذرين بلهجةٍ صارمة.

- إيّاكم والكذب. لدينا قوائم بالأسماء.

كان من الطبيعي ألّا أخطئ أنـا وأخـوتي بأسمائنا، ولكنني تعجّبتُ من محمـود حين قال إنه حسن. ظننتُ أن أبي لن يدخلني البئر، ولكن رؤوسَ الـرجـال اهتزت بحركة واحدة وهم يتفرّسون الصبي. حدّقوا إليه طويلا. كرروا السؤال عن اسمه فكرّر الإجابة بثبات.

- اسمي حسن.

استـداروا إليَّ يدرسـونني عن كثَب، ثم فزعـوا إلى الشَق يتفحصونه فهوى على رأسي حجرٌ ثقيلٌ ودخلتُ البئر طائعا هذه المرة. قالوا بلهجة واحدة:

ـ لقد سمعنا هذا الصبي يناديك محمود... أنت محمود.

تحوّل أبي إلى شلال يهدر بالأيمان الغليظـة التي تدور بالكامل حول حسن.

حسمَ محمود الأمرَ بأن فرّ هاربًا فطوى أبي رأسَه على صدره واستكانَ بغيظ. فنفثوا الكلمات من أشداقهم زهوًا.

- كان لك ابن اسمه حسن... كان.

جمعوا أوراقهم وخرجوا بينما راح أبي يصيحُ بصوت كالرعد.

- إنّه المختار الخنزير لا غيره مَن وشى بي، المختار ابن الحرام، ولكن اعلموا أن له عشرين بطاقة مزيفة. اعلموا هذا إن كنتم لا تعلمون.

اعتقدتُ أن قنـاعتـه بـوشـايـة المختار ستعفيني من العقاب، ولكن حين انتبه إلي طوّقني بعينين محمـرتين، فوجدت أن خيرَ ما أفعله هو الهرب. ركض خلفي يهددني بالـذبـح إلى أن تدخّـل الرجالُ وأقنعوه بأني أكبر أولاده حقا؛ ولكني ما زلت صغيرا.... انفثأَ غضبُه بالتدريج... قال لي بعتاب مر:

- لماذا خذلتَني؟ استحى أخوتك الصغار أن يفعلوا ما فعلت!

لم أجد عذرا امتصُّ به لوعتَه حتى وإن قلت له أن محمودًا كان يمزّق قلبي؛ إذ جرّاء عبثِهِ بالشق ستـدخـل الـريـح الباردة منه بصدرها ورجليها ويديها؛ بعدما كانت تدخل برأسها فقط.

ذكّرتني أمي سريعا بما حدث. قالت مشرعة إصبعها: كن حذرا هذه المرة. لا تفتح فمك إلا إذا سألوك، وإن سألوك أجب باختصار. وهمسَت تحدث نفسها.

- إنهم ملاعين. يعرفون الزُؤَانَ من الحَبِّ بنظرة واحدة من مسافةٍ بعيدة حتى لو لم يشِ بنا المختار هذه المرة.

لملم أبي أخوتي ودفعَهم إلى الخيمة فتلقَّفَتهم أمي بحرص. وقفَ يلهث ويمسح العرق وقد جرى على وجهه سيولا. لم أدرِ إن كان فرِحًا أم غاضبا حين قال:

- لن يحصونا. إنهم يحصون من تركوهم في المرة السابقة.

ألقى علي نظرة جانبية.

- جارنا أبو محمود استعارك مني.

قبل أن أعي شيئا هزّت أمي رأسَها برضا.

- واجب. لم يمنع عنّا ابنه حين استعرناه منه.

تناولني خطفًا يضغطُ على أذني بعنف.

- اسمعني جيدا... اسمك الآن عبد المعطي. هل تفهم؟ عبد المعطي... انزع من رأسِك تماما أن اسمك معزوز. هل تفهم؟

وعقّبت أمي ضارعة.

- لا تخيّب أملَ الرجل الطيب فينا.

ذكَّرَتني بخيبتي فرأيت الصدقَ يسقطُ أمامي مغشيّا عليه دون أن يكترث به أحد.... عاد أبي يضغطُ لي أذني.

- لا تنسَ... عبد المعطي. ردّدْه مئة مرة... ألف مرة.

ولكي لا أظن أنه يوليني الثقة من دون أخوتي قال موضحا.

- كان المفروض أن يكون ابنه الذي قتلَه اليهودُ في مثل سنك الآن... اسمه عبد المعطي... احفظه كما تحفظ فاتحة الكتاب.

طأطأت رأسي يأكلني القهر. أشياء كثيرة في داخلي تتكسر. حتى الشيء الوحيد الذي أملكه ولا يشاركني فيه أحدٌ مطلوب مني أن أتخلى عنه. اسمي الحبيب يلوّح لي بيده، يقول وداعا ويذرف الدموع.

جاء أبو محمود مُستبشرا. كدت أصيح به «أغرب عن وجهي» تصدّت لي قبضة أبي المشرعة. دفعني إليه باعتداد.

- لقد فهمَ تمامًا ووعى جيّدًا أنه عبد المعطي.

احتضنني الرجلُ بحرص. دسّ في فمي قطعةَ حلوى. تدحرجَت في فمي حبةَ حنظلٍ لفظتُها بقرف، وقبل أن أتوارى استدرت لأرى أمي من خلال الدموع تحاول جاهدًة أن ترفو الشَقَّ في الخيمة.

خرافةُ العيد.

قبل أن أسقطَ مع شلّال جبلِ التجرُبَةِ. اخترقتني الصرخةُ كالسهم. وجدتني في الفراش والصرخةُ التي انتشلتني من الكابوس والنوم تنشطر إبرًا صغيرة حادّة؛ تخترقُ جدرانَ الغرفةِ الطينية الواطئة، وتفرّ منها إلى الليلِ تمزّقُ عباءته السوداء.

أختي «يُسرى» ترفع يدَيها وقد تجمّد في عينيها الفزع. انقذتني صرختُها من السقوط في هاويةٍ بلا قرار كما يحدث لي كل ليلة مذ تركتُها تذهب إلى مطعم الوكالة. كانت تحاولُ إنقاذ نفسها من الذبح... أبي حاسرُ الرأسِ تحوّل إلى وحش كاسر، يُشرّع سكينًا بيد ويحاول بالأخرى أن يجرّها إلى الخارج. يزمجرُ والزبَدُ يتناثر من شدقيه.

- سأذبحُكِ.

رفعتُ رأسي محاولًا الصراخ. تمدّدَت الصرخةُ في فمي جثة هامدة. ظلّت يداي الممدودتان غُصنينِ لشجرة عصَفت بها الريح. ترنّحت ذبالةُ السراج تحت ضرباتِ الفَزع. رقصَ ظلُّ أبي على الجدار المقابل وحشًا والسكين في يده مخلبٌ مسنون؛ يتجول على الجدارن المتآكلة كما يتجوّل صوتُه الهادر في تابوتِ الليل.

- سأذبحُكِ.

لملمتني الدهشةُ حزمةً من الحطب الجاف. أشعلَت بي النارَ ولم أفهم ما يحدث... في الصباح وحسب شرحَ لنا الأستاذُ حكايةَ كبش العيد، ولكن أبي قطعا لم يرَ في المنام أنه يذبحُ ابنتَه. لو زارته رؤيا كهذه لأيقظني أنا بهدوء؛ أو لانتظرَ حتى الصباح وقال لي آسفا إنه سيذبحني. عندها سأكون ولدًا مطيعًا، أقدّم له عنقي صاغرًا «يا أبت! افعل ما تؤمر»...

على أي حال أنا من يستحق الذبح سواء أرَأَى منامًا كهذا أم لا. أنا من يستحق الذبح...نعم...فقد أخبرته كيف تذهب يُسرى إلى المطعم لتحشو بطنَها بغير العدس، هذا الضيف المقيم الذي عقدَ قرانَه على قدرنا، تزوجَها ويحترقُ معها يوميّا بغير عودة على نار السدر والبلوط. أخبرتُه فنامَت في عينيه نظرةٌ جامدة كتلك التي تغتالُ وجودَه كلما تذكّر أمي؛ وكيف قضَت برصاصِ اليهود قبل حلول العيد. ظننتُ أن الأمرَ قد انتهى عند هذا الحد، وأنني أدّيت واجبي على أكمل وجه كي أظلَّ بعده محظوظا ومتميّزا عن أختي، أذهب أنا ببطاقتي الصفراء الى المطعم، وتظلُّ هي حبيسة البيت بعد المدرسة، حبيسة العدس.

أعودُ إلى البيت فاتحًا مُظفّرا. أتجشَّأ في وجهها كما يحدث كل مرة، فتضم يديها إلى صدرها النابت بحسرة، ويسيلُ لعابُها غزيرا لرائحة السبانخ والجزر والتفاح، لرائحة الموز الطري

الذي يختلف كثيرا عن ذاك الأخضر الصلب الـذي يسرقُه أبي من البيارة كلما سنحت له الفرصة.

هذه الأشياء كنتُ حتى وقت قريب أسمـع بها مجردَ سمـع إلى أن حصلتُ على تلك البطاقة الصفراء. عندها أضفتُ إلى رأسي معلوماتٍ جديدة، كلهـا بلا استثناء عبَرت من بين أسناني تحتفظُ بها رائحة زكية؛ تسبقني إلى البيت حيث يُسرى بانتظاري.

أتجشأ في وجهها تماما فتنتشر تلك الروائح الغريبة عنها، تتلكأ في حلقي طويلا، وتلتصق على ملامحها حسرةٌ لمدة أطول. تسألني بحسد.

ـ ماهذا؟

ولأنني أصغُرُها بسنتين يعجبني تذللها، أراوغ منتقمًا من تعالِمِها عليَّ وشدّها أذني كلما أخطأتُ في جدول الضرب.

ـ هذا إجاص. هل سمعت به من قبل؟

تهزُّ رأسهـا بأسى يغـريني بأن ألقّنها كل يوم درسا جديدا... ذاكرتها قوية. حَفظَت الأسماءَ عن ظهر قلب. تستدلُّ على الاسم من رائحته؛ وإن لم أتعمـد نشـرها أحيانًا رأفة بها. تولّت المعدةُ الاحتفاءَ بأطعمة جديدة تزورها كل يوم بفعل هذه البطاقة.

هي بحجم كفي الصغيرة حقا غير أنها أكثر جدوى من لوح المدرسة الأسود الكبير. يتآمرُ مع مدرستِها لإغاظتها أيضًا إذ تلملم نوافذُها الرائحةَ من المطعم؛ وتحكي عنها بين يديّ يسرى بألف لسان فصيح. تقبضُ عليها بلهفة. تتحسسها. تشمّها. تذاكرُ على لوحها الأسماء الشهية. حين استسلَمَت لهذه الحرب التي أشنها والمدرسة عليها شعرتُ بالرثاء لحالها. لو كان قلبي حجرا لذاب وتفتت من وقع نظراتها الحزينة، فكيف وهي تتذلل استعدادا لبكاء لا ينتهي؟

- أرجوك يا «يسري»...يا «يسري»... دعني أذهب إلى المطعم ولو لمرة واحدة... مرة واحدة أرجوك.

حقّا أنا ولد في العاشرة والتخلي عن المطعم ولو ليوم أمرٌ غاية في الصعوبة، وحقا أحبُّ رؤيتها ذليلةً والشماتةَ بها، غير أنها قبل كل شيء وبعده أختي. لابأس لو جئتُ على نفسي مرة وحققت لها رغبتها... حتى المحكوم عليه بالإعدام يطلب _كما أسمع_ أيَّ شيء قبل تنفيذ الحكم به فيلبّى ذلك له.

إنها أختي ومحكوم عليها أن تقرفص كل يوم على صحن العدس. إنّه بدرجةٍ ما موت بطيء. لقد جربتُ هذا طويلا قبل أن تقدّم لي سحنتي الصفراء معروفًا لم أنسه لها أمام لجنة الكشف. سرعان ما أكرمَت اللجنةُ سحنتي بهذه البطاقة المخصصة لوجبة الغداء وحسب، أيَّ إن العدس لم يُخلِ سبيلي أو يعتقني تماما. ينتظرني كالقدر الغليظ على وجبة العشاء

فتُنكّسُ المعدةُ أعلامَها المرفوعة ظُهرا بشموخ ويبرطعُ الرماد في مدافعها الحزينة.

دفعتُ إليها البطاقةَ أخيرًا مدفوعا بشهامة الذكورة ولأن اسمي _كما أشارت بدهاء الجوعى_ يجلسُ على نقطتين لا غير خلافا لاسمها الممدد على نسمة متأرجحة؛ فلن يكتشف ذلك الرجل الغريب عن المخيم برأسه الأشعث ووجهه المجدور هذه اللعبة.

سالت نظراتُها شهدًا ضمَّتها إلى صدرها ومشت بخيلاء يتفتّق عنها الزقاق. تبعتُها غير متخلص تماما من الحسرة على ضياع وجبة الغداء. هممت أن أناديها وأنتزع منها البطاقة. خمنت إني لو ناديتها أو انتصبت أمامها مانعًا إيّاها من الذهاب فلن تراني ولن تسمعني؛ والمطعم يغمزُ لها من بعيد بحجارته البيضاء الملساء.

رأيتها تنتظمُ في الطابور الطويل، يزومُ فيه الصغار، يضغطُ الزمنُ الصعب دقائقَه بيدين غليظتين، يمر أبطأ من سلحفاة عجوز، تجرّهم الرائحةُ إلى الباب حيث ذلك الرجل الأشعث يقصُّ وجبة اليوم بمقرضه القاسي؛ ويدفعهم إلى الداخل بخشونة كأنهم سيجلسون على قفاه. مَرقَت إلي الرائحةُ من الباب ومن النوافذ المُشرعة تراودني عن نفسي؛ وترميني بالغفلة والسُخف. هممت بالصراخ.

- هاتي البطاقة... لقد عدلتُ عن رأيي.

كانت تحث الصغارَ على السير بنـزقٍ حتى خُيّـل إلي أنها ما زالت لا ترى أو تسمع غير المطعم ودبيبه في أعصابها المخدرة.

ظللت أتحرّقُ على نار الندم وما إن وصَلَت البابَ حتى تمزّقَت روحي؛ وتنـاثـرَت أشلاؤهـا على الأرض المُتربة. حدّق الرجلُ الأشعثُ في البطاقة ثم إليها. زادت الغصون وانتفخت على وجهه المجدور.

ـ اسمك يسري؟

نكست رأسهـا خجلا أمام نظراته الجارحة. حاولَت أن تهزَّ رأسَها نفيًا. أعـرفُهـا لا تطيق الكـذب. تصلّب الـرأسُ على صدرهـا صـخـرةً ثقيلة. مدَّ إصبعَه إلى ذقنها. رفع وجهها ببطءٍ وتلذّذ. أشار إلى صدرها النابت.

ـ وهذا الصدر؟ لولد؟

لم أفطن أو تفطن لصـدرهـا. كلُّ ما حسبناه أن الفرقَ بيننا نقطتـان فقط يجرهما بعناءٍ خلفه اسمي. حملتني ضحكتُه الـكـريـهـةُ حيث أقف إلى البـاب بوثبـةٍ واحدة. خطفتُ البطاقة من يده، دفعتُ أختي بعيدًا عن مرمى عينيه فتكوّمت قطةً ذليلةً

فاجأها كلبٌ شرس على حين غرّة. دفعني الرجل إلى الداخل بفظاظة غيرَ متخلصٍ من نظراته التي تجلدني من الخلف.

قبل أن أضعَ في فمي أولَّ لقمةٍ وجدت يسرى قبالتي تاركةً وجهها مَسرَحًا لسعادة فريدة. قبل أن أسألها كيف تسنّى لها الدخولَ بَرَزَ وجهُ الرجل بشعًا مقيتًا. تبادلتُ وإياه نظرةً طويلة حاسمة لم أفهمها إلا بعد مرور أيام أخرى؛ شاركَتني فيها الذهاب إلى المطعم ببطاقةٍ خاصة بها. ولأني هجستُ أن ذلك الرجل هو وراء تردد يسرى على المطعم مثلي، أو لأني لم أعد أشعر بأني متميز عنها فقد أخبرت أبي الذي نامت في عينيه تلك النظرة الجامدة؛ قبل أن ينتفضَ ويتفجّر من بين أسنانه.

ـ هكذا إذن! أنجو بعِرضي من اليهود لأخسره في هذا المخيم اللعين!

أخلى الندمُ سبيلي لهذه الوشاية، كيف وقد تداركتُ أمرًا فاجعًا شرحَه أبي بغضبه الماحق؛ وبقطعِه الشغل في البيّارة بما يعنيه هذا تخليهِ عن قروش عشرة، وبضعة قرون من الموز الأخضر الصلب عديم الرائحة. تخلى عن كل هذا ليقبضَ عرضَه مُتلبّسا بالجرم المشهود.

ضبـط يسـرى يـضـاحُكها ذلك الرجل الأشعث والبطاقة في يدها لم يمسَّهـا المِقـرَضُ غير مرة واحـدة. عجبت أنه لم ينقض عليهـا ليـذبَحها. عجبتُ أكثر لأنه تركَها تدخل. لم أدر إن كان قد قرَّرَ الحكمَ عليها بالموت ملبِّيًا لها الآن بانتظاره هذا رغبتَها الأخيرة، أم أن قلبه لم يطـاوعـه بالتخلي عن وجبة تتهادى الرائحة منها إلى منخريه في غايـة الـروعـة! تحيّرتُ حقا إلى أن انتشلتني الصرخة تلك من الـكـابـوس والنـوم؛ قبل أن أسقط مع شلال جبلِ التجربةِ وأرتطمُ بصخره الناتئ، وأتفتتُ كما يحدثُ كلَّ ليلة منذ أن أعطيت يسرى بطاقتي الصفراء؛ وتركتهـا تذهب.

ارتطمتُ بوجه أبي الصارم والسكينُ في يده مشرعة. ارتطمت بالفزع في عينيّ يسرى قبل أن يشتدَّ الطَرقُ على الباب فيخرج أبي إلى الناس لاهثا مُنكَّس الرأس. عندها فقط أفلتت مني صرخةٌ مدويّة، واستطعتُ أن أغـادر الفـراش وأضم أختي وأنتحب. ظلّت جامـدةَ المـلامـح للحظات، ثم دفعتني عنها واندفَعت إلى الناس تطالبُهم بجفـاء أن يذهبـوا.

توزَّعـوا في أحشـاء اللـيـل بين دهشـة أبي وذهـولـه. لم يكـد يرفعُ رأسَه حتى ذكَّرته بالموز الذي يسرقه، وحـين عاد رأسُـه إلى الالتصاق بصـدره ذلّا وقهرا قدّمت له عنقَها مُتحدية.

ـ اذبحني... هيا اذبحني.... افعلها هيّا.

ثم لاحقته بالقول وهو يتكوّم على الفراش.

ـ سأذهب إلى المطعم... هل تسمع؟ سأذهب.

تدلّى رأسُه بين ركبتيه... عندها تناولتُ البطاقةُ من صدرِها، مزَّقَتها ثم ألقَت بنفسها بين ذراعيه وراحت تجهش مثله بالبكاء.

قهوةُ المَدفع.

أنـا لا أذكـرُهـا. لكن أبي يردّدُ بأنها وصيفةُ يافا عروس البحر، وملتقى الرجال ممن لم تَعصف بهم ريحٌ غريبة؛ فظلّوا يلبسون الكوفيةَ والعقال فوق قمبازٍ مرقّط تموجُ عليه الشمس؛ كلّما رفرف ذيلُه حقلا من سنابلِ قمحٍ أصفر.

وأبي يحكي على الفطرة. لا يزمُّ شفتيه ولا يتحذلقُ بالكلام. يحكي بمقدار ويعرفُ متى عليه أن يكون أخرس. هذه عادته مذ فتحتُ عينيّ عليـه في الخيمـة الـداكنة؛ ومنذ أن دخلَ رأسي بأنفه الشامخ، وشاربِه المعقوف يبرمُ طرفيه ونظرةٌ ساهمة تستلقي في عينيه؛ تسحبُه بعيدًا إلى أن تزعقَ أمي بصوت مذبوح.

- وحِّد الله.

ينتفض مأخوذًا يلملم طرفَ قمبازه، يأخذ وجهي بين يديه الخَشِنتين. يطلقُ زفرةً تلفحُ طلائعُها الساخنة وجهي. أعجبُ أين يسـافـرُ بعيدًا وهـو معنا يتشاغلُ بفتلِ شاربه حتى إذا عاد كان مهدودًا، ببقايا وجههٍ كالح تخاطَفَهُ الشُحوب.

هذه عادته ولكن إذا ما ذُكِرت يافا اهتزَّ ورَبَا لذكرها. يترنحُ رأسُه كأنما لينفضَ عنـه غبـارًا يُغيرُ على الخيام؛ ومنازلِ الصفيح حيث يقتلعُ بعضَهـا ويـطـوي هيبـةَ بعضَهـا الآخـر. يمصمصُ شفتيه ويطلقُ زفرةً حرّى.

ـ ايه! قهوة المدفع.

تغدو ملامحُه أسيرةَ ذكريات عزيزة تضرب مجاذيفها في بحر عينيه. يتخضّبُ وجهُه بحمرة غريبة أرى مثلها الكثيرَ على وجوه الرجال والنساء وكذا الأطفال، بينما الكلُّ محكومٌ ببضعة أرطال من الدقيق الأبيض بلون الجير، وبحفنة سكر أحمر، وفي شهور البرد القارس قبضاتٌ من تمر فَقَدَ اسمَه وهويتَه. يرمي أبي إلي بحبة منه مُغتاظا.

ـ خذ. هذه برتقالةٌ من يافا.

ويلعنُ وكالةَ الغوث واليوم الذي صار فيه لاجئا يصطفُّ طويلا تحت شمس لاهبة؛ أو بين فكيّ برد شرس، ولأنه لم يعتد هذا الذي يسميه هوانًا وذلّا وقلةَ اعتبار؛ فقد كان ينفضُ قمبازه كلمّا عاد من مركز التوزيع مكفَهرَّ الوجه كأنَّما تلقى لطمةً موجعة من يدِ حقود جحود. يُطلقُ الزفراتِ مرددا.

ـ بعدما كنت أحمل صناديقَ البرتقال صرت حِمارًا لهذي الوكالة اللعينة، صرتُ أحملُ الطحين.

ثم يحكمُ على نفسه بالصمت إلى أن يجتمعَ شملُ الرجال أمام الخيمة يلعبون «السيجة» ويشربون الشاي... ينفجرُ بلا سابقِ إنذارٍ فيلعنُ اليومَ الذي صار فيه لاجئًا يُسلّم ذقنَه لوكالة تضعُ على ظهره البردَعة، وفي فمِه اللِجام. يُقلّب عينيه في وجوه الرجال ضاربًا كفّا بكف.

- يا جماعة هذه الوكالة تسخرُ منا. عليّ الطلاق إنها تسخرُ منا... ما تعطينا إيّاه كنت أنفقه أيام الجمع على الشاي والنارجيلة في قهوة المدفع.

تنتحرُ في عينيه نظرةٌ مُؤسِية فيما تعبُرُ وجهَه موجةٌ من الذكريات الحلوة. أرقبُه وهو يتفتّتُ ويذوب مسافرًا من جديد وقد غدا خيالًا لرجل يكون في لحظة ما أبي، حتى إذا صاحَ به أحدُهم « قتلتُ جروَك... العَب». ارتعشَ يرقبُ الجروَ الميّت إن كان حصاةً أو نواةَ تمرٍ ثم يهمهمُ بضحكة يحملُ نعشَها الغيظ.

- جروي مات! أبيه! ماذا تبقّى لنا؟ أبيه! جروي مات؟ فليمت.

ويمدُّ أصابعَ مرتعشة يحرُّك حصاة ما زالت في رقعة اللعب. يقوم بحركة تبعثُ الدهشة في عيني الخصم.

ـ أنت يا «أبو عزيز» لا تلعب. أنت تقتل الوقت.

يمتص أنفاسًا عميقة من لفافته «الهيشي» ويحدّقُ إلى الرجل بعينين دبّ فيها الاحمرار؛ وطوَّقَتهما الدموع.

ـ كلُّنا نقتل الوقت. نقتلُ الوقتَ ويقتلنا.

يلتفت نحوي أو هكذا يخيّل إلي. تشي ملامحُه بأنه لا يعرفني؛ أنا الولد الصغير الذي تخطيت سني مبكرا ولا أشارك أترابي اللعِب. يعرفُني أخيرا. يمدّ ذراعَه ويقبضُ

على ساعدي أو رجلي أو عنقي، العضو الأقرب. يسحبُني إليه بغضب مفاجئ، يهزّني بشراسة كمن يحذّر خصمه.

- كنت آخذه معي إلى قهوة المدفع. أحجز له مقعدًا بجانبي. لم أكن أضعه على ركبتي كما يفعل البخلاء. لا تهمّني النقود. أطلب له الشاي والقهوة. قهوة «أبو صالح» تعرفونها. وأحيانا أترُكُه يسحب من النارجيلة... كان يرفض فأتحايل عليه، كان يبهجني سعالُه ودموعُه تفرّ من عينيه كاللؤلؤ. كنت أضحك من قلبي حينها.

يأخذ وجهي بين يديه الخشنتين ويصيح بي فجأة.

ـ أنت تذكرُ هذا حتما!

أهز كتفي فيضربني على ظهري ضربةً موجعة.

ـ ألا تذكر قهوة المدفع؟ قهوة المدفع ألا تذكرها؟ أبو صالح؟

يُنحِّيني عنه بلحظة ويزفر آسفًا.

ـ ابن الملعونة لا يذكر.

يتطوّع أحدُ الرجال بقصدِ أن يُذهِبَ غضبته أكثر من محاولته التخفيف عني.

- كان صغيرا في تلك الأيام.

يبسطُ يديه باستهجان.

- ولكنها أيام لا تنسى! لا تنسى يا جماعة.

يضربُ كفّا بكف. يتفرسُ بي طويلًا ثم يلتفتُ إلى حيث الصِبية يطاردون كرةً من جورب مهترئ.

- كلُّ هؤلاء الملاعين لا يذكرون... مصيبة... كيف نتركُهم ينسون؟!

ويسددُ إليَّ نظرةً ثاقبة تخترقُني حتى العظم، يشيرُ نحوي بإصبع مرتعشة، يحمّلُني وزرَ الكارثة.

- هذا الذي تقولون عنه صغيرا يذكّرني بموعد توزيع المُؤن آخرَ كل شهر.

يضحكُ أحد الرجال ضحكة فقدَت لونها.

- المؤنُ فيها جبنة كشكوان وتمر سوداني، أما التبغ العجمي فكيف يذكره وقد كان يسعل منه وتدمع له عيناه؟

يتطامنُ رأسه فتبدو ذؤابتا شاربه كجناحي دوريٍّ باتَ يرتعشُ من البرد. يغمغم.

- ايه! كانت أيّامًا.

ويرفع وجها مربدًا.

ـ هناك انتهى العمر.

يقلّب عينيه في الخيام ومنازل الصفيح وهي تهتز وتتوجع لكل نسمة شاردة. يقول بصوت كأنما هو صاعدٌ من قعر بئر مظلمة أو هابط إليها.

- نحن أموات. صدقوني يا جماعة... إننا أموات.

وعندما يصيحُ الخصمُ بفرح طفولي مرةً أخرى.

- جروك مات.

يحدّق إلى رقعة اللعب ببلهٍ كأنَّما يراها لأول مرة؛ ثم يرمي الرجلَ بنظرة اشتعلت فتائلُها. يمد يدًا عصبية إلى الرقعة يبعثرها، وينهض نافضًا قمبازه من التراب. يلقي القبضَ على يدي ويجرّني وراءه بغلظة، ثم يتوقف فجأة يتفرس بي فأبحرُ في عينيه تدفعُني نسائمُ طريةٌ عطرة. يأخذ بإبطي ويحملني برفق وحذر كأنما يحمل برميلا من البارود.

عنقُ الزُجاجَة

مارِدٌ في النهار. مارِدٌ لا تنجلي عنه زوبعةٌ عتية كحكايات أمّه القديمة، إنما يخرج من حجرته الطينية الواطئة الشبيهة بآلاف البيوت، يخرجُ بالسروال الضيق المفتوح الأزرار حتى الخصر كغيره من الشبّان، ولكن الاختلافَ بينهم وبينه كبير.

هو مارِدٌ بحق. يتشقق عنه الطينُ مثلَهم بيد أنه مارد وعملاق. هو حامل أثقال، لم يخسر ولو مباراة واحدة بين شدقي المخيم. كان هذا هو همّه الكبير، ثم شغلته طويلا فكرة أن يفرَّ من حدود المخيم الضيّقة؛ وهاهي الفرصة قد أتت عارية الثياب. كلها بضعة أيام ويغزو المدينةَ الكبيرةَ حيث طلَب من أمّه بذلة جديدة، فقلّبت يديها وجيوبها وقالت بحسرة.

- كما ترى العين بصيرة واليد قصيرة.

وترحّمت على والده قبل أن تستطرد باكية.

- هل كان من الضروري أن يكون عنترَ زمانه؟

فانسحبَ خلفَها إلى المخيم سيرًا على الأقدام. حاول آنذاك أن يتذكرَ وجهَ والده. لم يفلح رغم أن لم ينقضِ على غيابه الأبدى سوى عامين.

تحوّل وجهُ أبيه إلى بذلة أنيقة، ولم يجد من يحمِّله تبعاتِ موتِ أبيه؛ وبكاء أمّه المتصل غيرَ بائعِ الهرايس «أبو مرزوق»

فهو من كان يأتي إلى أبيه في الفجر؛ يأخذه معه إلى ما وراء خطوط الهدنة، وحين يعود يتباهى بأنه شربَ من بئر البلدة، وأكل من التينة في صحن الدار. يتباهى بأنه لم يوقّع صكَّ الهدنةِ وأنه ما زال يقاتل اليهود.

ما زال يكرهُ هذا الرجل. يكرهه أكثر بكثير من الذبابِ الهاجم على صينية الهرايس، ويعتقد أنه يبادله الكره، بل ويحقد عليه ويحسدُه على ما حقَّقَه من حضور في المخيم، وعلى ما ينتظره من حظوة حين يغزو المدينة الكبيرة، وما هي إلا خطوة واحدة ويبلغُ حلمه السعيد. خطوة واحدة خارج المخيم والفقر والعفن.

بعدها يغدو اسمُه على كلّ لسان. سيثبت أنّه الأقوى رغم الفقر وسوء التغذية. سيزورُ أبوه في قبره المجهول رغم ادّعاء «أبو مرزوق» أنه واراه في صحن الدار. سيزرع الغارَ على ذاك القبر ولو من بعيد. بعد أيام قليلة ستتخاطفه الأكتاف، تطوفُ به شوارعَ المدينة قبل أن تزفّه إلى المخيم بطلا متوّجًا بحدقات العيون.

هذه حالُه في النهار، أمّا الليل فمستنقعٌ موبوء يمسخه حشرةً قميئة، يحوّله إلى ضفدع يجاهد في أن يسحبَ من الطين اللزج قوائمَه الخلفية.

تبرز له العيون عكرة ممسوحةً بأقدام القهر كلما أطلقَ بعد كل مباراة صيحات الفرح. في الليل تحديدًا تنقلب الأيدي المربتة عليه إلى أغصان صفراء ذابلة، وتغدو الطرقاتُ الموحلة تحت قدميه أرضًا بكرًا لمقبرة تَنفُسُ أهلِها حشرجَة. أما أمّه تلك البحيرة العذبة المُعذّبة تصبّ عليه من عينين افترسهما الرمد زيتًا حارقًا، وتقول بصوت يلتحف بآهة طويلة مزمنة.

- هل عدت يا بطل؟

تسأل وتجيب محدّثةً نفسها.

- آه... عاد الفارس. عاد أبو زيد الهلالي. قم يا خليل وانظر لابنك.

وتنخرطُ في بكاء مر.

- لماذا تركتنا يا خليل؟ لماذا؟

حاول من قبل أن يهدّئها، أن يُطيّبَ خاطرَها بأن ستزحف إليه الشهرةُ العريضة والمال، بأن سينسيها تعبَ الأيام وموتَ أبيه. يشتد صراخُها وتتحول عيناها إلى جمرتين كأنما يسكبُ فيهما النفط.

تعلّمَ أن يخلع عنه أحلامَه عند العتبة مع الحذاء، تعلّمَ أن يتركَها تلعنه كيفما اتفق ويندس في الفراش. يغطي رأسَه وأذنيه فينسرب إليه صوتُها من الداخل، داخله، ويغدو النوم نَجمًا بعيدًا يشتد لمعانُه كلما أمعن في السهر والذكريات.

ينثالُ عليه الخوف. خوفٌ قديم بعمرِ أظافره الناعمة، يوم أن كانت أمّه تحكي له الحكايا عن الغول والمارد والضباع التي تسرق الصبيان من البيوت؛ لأنهم لا يسمعون كلام أمهاتهم. يطاردُه خوفه القديم من غول أو ضبع جائع يدفع الباب، يبولُ عليه ويحملُه من حضن أمّه فيتبعه طائعًا مرددا في كلّ خطوة «خذني معك يابا»... إلى أن يرتطمَ رأسه بالمغارة ويسيل الدم. عندها يصحو ويولّي الأدبار إلى البيت ويندس في حضن أمه من جديد.

كان صغيرًا أيّامها وما عاد النومُ بحيرةً هادئة تُغرِقُ فيها الهمومُ مراكبَ صيدٍ تمزّقت منها الأشرعة. النوم والليل صخرةٌ تتحطم عليها مراكبُ الأمل والأمنيات بالبطولة وترك المخيم بوحله وأزقته؛ بارتحال أمّه مع الشمس دون أن يقلقَها الرمد. يلطمُ الشوارع معها بحذائه اللمّاع ورأسه الشامخ. عندها ستندم على قولها الدائم «لن تفلح أبدًا... ليتني أنجبتُ بنتًا بدلا منك». عندها فقط سيقضي أبو مرزوق حقدًا ويكف عن نصائحه المكررة كلما صادفه.

- يا بني. ابحث لك عن عمل تنفق وتعيل أمّك منه. هذا أفضل من العنطزة الفارغة. ضع عقلك في رأسك. أبوك يرحمه الله كان بطل الأبطال لو أراد، ولكنه لم يترك الأرض إلا ليلحقَ بالثوار في الجبال، وقد قضى نحبَه كما تعلم وهو يحمل السلاح.

وينعطفُ على أمّه يهيلُ عليها الإشفاق وهو يطارد الذباب عن الحلوى، يعلنُ صراحة أنها تفني شبابها من أجل ابن تافه لم يحمل عن والده غير ضخامة الجسد، وغير هذه القوة الخارقة؛ ولكنها تصبّ في النهاية في مجارٍ منسية مهملة على حدّ قوله الصريح. لطالما أرَّقَته صراحةُ هذا الرجل...

في الليل بالذات تجلده وتغرس الشوك في صدره، في يديهِ تحديدًا فتسقطان على جانبيه حزمتين من الحطب. يجف ريقه فيحتار. لمَ يعذبه أبو مرزوق كل هذا العذاب؟ ولمَ لمْ يسدد إلى وجهه لكمة قاضيةً حتى الآن؟! كلما حاول طردَه يلح على ذاكرته ذبابةً عنيدة. توجعه تلك النظرة الغامضة في عينيه كلما التقاه. يمرر يديه على صدره العاري المشعر، على زنديه.

- ما شاء الله... ما شاء الله.

يسافر بعينيه بعيدًا، بعيدًا وقد كفّت يداه عن مطاردة الذباب.

- أبوك أيضًا كان قويّا يصرع ثورين معًا. كان يمسح بسبّابته والإبهام على الليرة العثمللي فيمحو الكتابة عنها. هو أيضًا كان بطلًا ولكن من نوع آخر. كنّا نضع على ظهره حِملَ بعير فيقوم به ضاحكًا.

ويطلق تنهيدةً حرّى تُقلق غفوةَ الذباب على الحلوى.

- ولكنه كان بالمقابل يأكل خروفًا على جلسةٍ واحدة ولا يقول الحمد لله. السمن والعسل والفاكهة الطازجة من الشجرة إلى البطن رأسًا. إنها بلاد السمن والعسل. بلاد الخير... وقد ظل أبوك هناك لأنه يُحبّها. أحَبَّ تلك الأرض التي أعطته الكثير وأعطاها الكثير.

ويحدجه بنظرة ثاقبة.

- أما أنت! فلا تعرف العطاء... ما زلتَ تأخذ فقط.. وممن؟ من أمك المسكينة الرمداء.

حديثه الدائم عن أمه يمثل بؤرة الوجع، ويذهب إلى أنه لم يطلبها للزواج سترًا لها كما ادّعى بعد موت زوجها؛ وزوجته هو برصاص اليهود، وإنما كانت عيناه عليها قبل مقتل الأب،

بل ذهبَ إلى أن هذا الرجل قد اغتالَ والدَه تحقيقًا لمطامعه الخبيثة.

لم يقل له ذلك كلما تصدّى له. شيءٌ ما في عينيه يربطُ لسانَه باستمرار كلما تزاحَمت عليه التهم، كما يُحيّره في الوقت نفسه غزلُ الرجل الدائم بأبيه. يتذكر أيام الصبا والشباب، أيامَ الخير والصراع، ثم يهوي بيد عصبية على الذباب ويطارده لاعنًا الذباب والمخيم والحياة المنقوعة بالذل.

- أنت قوي. هذا حق ولكن القوة وحدَها لا تفيد. البغل أيضًا قوي ولكنه يظل بغلًا.

تتوترُ أعصابه كخيط القُنَّب، ويفكُّ لسانه بصعوبة.

- هذا كلام يدفع غيرُك ثمنَه غاليًا لو تجرَّأ وقاله لي.

تزعجه تلك الابتسامة الساخرة على زاوية فمه.

- أعرف يا بني. أعرف... لهذا أقول لك إن البغل يظلُّ بغلا ما دام لا يبصرُ أبعد من حوافره.

ثم يقبض على ذراعه يهزّه بعصبية، تقنعه أن هذا الرجل لن يكون لقمة سائغة فيما لو اجتاحه الغضب منه.

- شباب أضعف منك وفتيان أصغر سنّا وجدوا ما يشغلهم غير تلك المهارات التي لا تفيد أحدًا ولا حتى صاحبها.

يعتصم بالغباء كيلا يستدرجَه الرجل للحديث عن التدريب وعلى السلاح؛ واختراق خطوط الهدنة كما يسمع عن أولئك الشبّان والفتيان. يشيح بوجهه تبرّمًا.

- اطرد الذبابَ عن الحلوى. هذا أفضل.

ويهمّ أن يمضي فيطبق أبو مرزوق على عنقه بأصابع من حديد. يجبرُه على الوقوف والتحديق فيه بعينين منكسرتين.

- أتعيّرني؟

ويستلُّ من تحت الصينية مسدسًا أسود. يستلّه بأسرع من لمح البصر ويهدر صوته.

- سل الشبابَ العقلاء من يكون أبو مرزوق إن كنتَ لا تعرفه.

يتركه بعدَ أن تستلقي في عينيه نظرة أسف. يعيد المسدس إلى موضعه بحرص ويغمغم.

- أبوك يزورني كثيرًا في المنام لأني أزور قبره كثيرًا. أتدري ماذا يقول لي؟ يقول... اقتله وأرحني منه.

ثم يحمل الصينية ومن تحتها الحامل الخشبي ويمضي بعيدًا مخترقًا الأزقة المتربة؛ تتكسرُ على قمبازه المرقط شمسٌ على وشك أن تغيب.

يتابعه بعينين تجمّد فيهما رصاصٌ مصهور، ثم يهز كتفيه ويمضي إلى البيت. هناك يلتقي بالمَوَات. يهطل سوادُه الحالك في الرأس؛ بين العينين إذ تتوغل فيه كلمات هذا الرجل كالمنشار. يشعر أنه مارد النهار تحوّل إلى ضفدع يجاهدُ في سحب قوائمه الخلفية من الطين اللزج.

يفلح أحيانا ولكن ليدخلَ في زجاجة محكمة الإغلاق، يستنفرُ قوتَه كلها بالزحف عبرها إلى أن يصل العنق تمامًا؛ فيُدرك عندها أن الصراع ضربٌ من العبث؛ وأنه ضفدعٌ حقير، وفي أحسن الأحوال بغلٌ كما يقول أبو مرزوق. بغلٌ لا يبصرُ أبعدَ من مرمى حوافره.

الأبيَض

هل هي المصادفة أم تراه حظّنا النحس ما ساقنا إلى تلك الخيمة الداكنة؛ القابعةُ طفلةً يتيمة هدَّها النعاس بجوار تلك الخيمة الكبيرة ذات الأعمدة الثلاثة؟ لم يبدُ الأمر في البداية أنه سوء حظٍّ على الإطلاق، كما بدَت المصادفةُ جدًّا رائعة.

وجدنا أكثرَ من عائلة تحسدُنا على موقعِ خيمتنا المتميز «نسبيّا» فهي تقعُ على شارع ترابي عريض نسبيّا؛ يمرُّ من جانبه أسفلت يربط بين مدينتي أريحا ونابلس، كما إنها قريبة من النبع المتدفق بمائه صيفًا وشتاءً..

والأهم من هذا كله أنها ملاصقة لتلك الخيمة الكبيرة، خيمة المختار «حسن الأبيض» التي لا تنطفئ فيها النار تحت دلال القهوة، كما لا تخلو من الرجال والنساء القاصدين خدماته ووجاهته أمامَ مدير المخيم صارم الملامح، أو الشرطي القصير المُتبختر بعصاه السوداء، ومسدس يتطوّح على جنبه الأيسر كلما تمايل زهوًا؛ أو حاولَ أن يطيلَ قامته المسخَ بضعة قراريط.

وحسن الأبيض رجلٌ خدومٌ وشاطر أيضًا، وليس مبعثُ شطارته أن خيمتَه الكبيرة فقسَت خيامًا أخرى بعدد زوجاته الأربع، وإنما لأنه في رأي العارفين يفهمُ لغة المدير والشرطي؛ لأن باستطاعته أن يوردَ أهلَ المخيم أجمعين إلى

النبع ويعودَ بهم إلى الخيام عطاشى؛ يقبّلون حذاءه اللامع دائمًا من أجل قطرة ماء.

ليست هذه مبالغة فقد شاهدنا _أنا وأبي وأمي وأخوتي السبعة_ كيف تنحني النسوةُ خاصة على حذائه، ويقبلنه ويبللن الدموع. شاهدنا ذلك بحكم الجوار، لا سيما أنا وأخوتي فنحن فضوليون أكثر بكثير من أمي وأبي، بل إن أبي تحديدًا كان يزجرُنا، يدفعنُا أمامه إلى خيمتنا ويفهّمنا برويّة ما يجب وما لا يجب. يشرحُ بصوته الهادئ المطحون بالأسى أن التدخل في شؤون الناس خطأ وخطأ كبير.

وحين نقبعُ في الخيمة كالفئران المطرودة عن خوابي الطحين كانت تلك الخيمة وصاحبُها الأبيض تسعى إلينا على شكل رائحة زكية، تنبعث من الدلال الساخنة فتعبق خيمتُنا برائحة القهوة. نشعرُ عندها أننا محظوظون، بل أكثر حظوة من مدير المخيم ومن الشرطي، ونفهم الحظوة على أصولها حين نقول ذلك لأقاربنا المبعثرين في المخيم إذا ما سألونا أين نسكن بالضبط؛ وقلنا بجوارِ الأبيض... على الفور تدورُ أعينُهم في الدهشة حتى إذا ما أتوا حدّقوا في الخيمة ببلهٍ واضح.

كنتُ وأخوتي نفاخرُ كثيرًا بموقع الخيمة على العكس من أبي. كان في عينيه قلقٌ لم يفصحُ عنه إلا في مرّات قليلة؛ حين كان يلوم أمي على إقامتها صلاتِ الود مع زوجات الأبيض، تزورهن في خيماتهن. كان يلومُها على هذي الزيارات ولكن

بطريقته الودود دونما صراخ أو زعيق. يشرحُ لها أنه لا يحرمُها من أمر يأتيه فهو لم يزر الأبيض في خيمته الكبيرة، ولم يشرب قهوته، كما لم يقصده في حاجة طارئة كما يفعل الآخرون.

كان ينهي كلامَه بصوت دبّت فيه الكبرياء حين تلومه بدورها على أنه لم يزوّر بطاقة إعاشة واحدة، ولم يسطُ على خيمة أخرى نتوزعُ أو نضع متاعنا القليل فيها. تدبّ في صوته الكبرياء حين تلمّح له أن في يد الأبيض الحلول لمثل هذه المواقف.

- لن أقصدَه حتى لو انفصل رأسي عن جسدي.

ويسارع إلى الخروج قاطعًا الطريق على أعذارها وعلى ما لملمته من أفواه زوجات الأبيض حول عينيه الزائغتين كلما رأى امرأة؛ أو حولَ معاقرته الخمر في الليل بعدما تنطفئ النار وتبرد القهوة. كانت تقول لنا ذلك همسًا، تبريرًا لرفض أبي إلحاحها وندمها على هذا الإلحاح، وربما لأنها تريد أن تتخلص من أحمال تؤودها بعدما رفضَ سماعها، فهو من طبعه لا يحب أن يدخلَ لسانَه في سيرة الناس وأسرارهم.

يعتبر ذلك من المحرّمات وخروجًا على التقاليد والخصال الحميدة. يقول لها كلما جاءت على سيرة الأبيض.

- ما ضرّنا؟ نحن في خيمتنا وهو في خيمته... أو خيامه.

وإذ يقول الخيام تتنهدُ بحرقة وتضرب كفّا بكف أسفًا لأنه لم يكن شاطرًا كما يجب ليسطو على خيام أخرى؛ أو على خيمة واحدة على الأقل كما فعل أرباب الأسر الأخرى حين جاءوا مثلنا بعد أيّار إلى هذا المخيم؛ ووجدوا الخيام منصوبة كأنّما كانت بانتظارهم منذ الأزل.

كلّ رب أسرة دسَّ زوجته وأولاده في خيمة مستقلة؛ والشاطر من مزّق العائلةَ إلى أفخاذ وبطون ليحتلَّ كلٌّ منها خيمة مستقلّة. هذا حسب شطارة كبير العائلة وصِلتِهِ بالأبيض ومقدرته على تزوير بطاقات الإعاشة، يتحايلُ بها على البطالة والفقر وتعويضًا مسخًا لما تركَه من عقارات وبيوت لقمةً سائغة لليهود.

ولأنّ أبي ليس من هذا النوع، أي ليس محبّا للتعويض أو شاطرًا بما فيه الكفاية فقد دسّنا في خيمة واحدة ووحيدة؛ لا تتسع بحال لعشرة أفراد، كما أن ليس لها من ميّزات سوى أنها جاءت بالمصادفة مجاورةً لخيمة الأبيض.

هذا على الأقل ما حسبناه في البداية، قبل أن تصبح الخيمة والأرض المقامة عليها بالشيء الفلاني، قبل أن يسطو الأبيضُ على الخيام المجاورة يسانده الشرطي بحجّة إقامة مسجد كبير، قبل أن يغدو هذا الموقع المتميز سوقًا كبيرة يصبُّ فيها نهر الناس ليل نهار، قبل أن تنطفئ النارُ في خيمة الأبيض الكبيرة وتتحول إلى متجر كبير؛ يزحف على المسجد باطرّاد حتى لم

يعد للمصلّين موضعُ قدم، حتى لم يعد هناك مسجدٌ ليُثبتَ الأبيضُ كرّة أخرى أنه شاطر وبعيد النظر على رأي أمي.

كان هذا قبل أن ندرك يقينًا أن حظّنا النحس هو من ساقنا إلى تلك الخيمة القابعة طفلةً يتيمية هدّها النعاسُ بجوار خيمة الأبيض الكبيرة؛ بجوار تلك الخيمة التي كانت خيمة وتحوّلت إلى متجر كبير تزحفُ على المسجد والخيام المجاورة تقصّ منها كل أسبوع بضعة أمتار، كما يزحفُ علينا الخوف موشوشًا إيانا أن مصيرَ خيمتنا سيكون لا محالة مثل تلك الخيام... أبي فقط لم يزحف إليه الخوف، ربما لأنه رجلٌ مسالم لا يتدخل في شؤون الأبيض ولا يدخلُ في سيرته المنتنة، وربما لأنه يحلمُ دائما بالعودة ويعتبر الخيمة حالة طارئة... لقد أرضَعنا أحلامَه هذه كما أُرضعنا أنا وأخوتي مبادئ لا تُنسى، بيد أني _وربّما لأني ابنه البكر_ أحسستُ بالخوف الزاحف، كنتُ أشارك أمي في لومِها الصامت والمعلن أحيانًا لأنه لم يكن شاطرًا كما يجب.

كنتُ أحس أني مسؤول بدرجة ما عن أخوتي الصغار تحديدًا، حين يدركُهم الليل فتكاد أرجلهم وهم نائمون تتفتق عنها جنبات الخيمة. عندها لا أفهم تلك المبادئ التي يروّج لها عن مغبّة التزوير والكذب. أقول بلا مواربة.

- بطاقة أخرى تعني خيمة أخرى.

كان يختلسُ إلى الأرجل الصغيرة نظرةً حائرة، ويتطامن برأسه، فيشجع هذا أمي على التحدث عن شطارة الرجل، عن شطارة الأبيض وبعد نظره. ورغم إحساسنا بأنه يتقلب على نار حامية لم نسمعه ولو مرة يقول إن الأبيض هذا قد نال أكثر من حقّه، حتى بعدما رأى خيمتَه تغادرُها النار بلا رجعة وتعود القهوة إلى العلب، لم يقل شيئًا ذا بال في هذه المسألة....

يهزُّ رأسَه عدة مرّات ويكتفي بترداد أن مقامنا لن يطول في هذا المخيم. لم يخرج عن طوره كما لم يتطوّح هذا الرأس في كلِّ اتجاه قهرًا وكمدًا وخروجًا عن المبادئ؛ إلا حينَ وقفَ أمام الشرطي القصير وأمام الأبيض وجهًا لوجه.

جاء الشرطي بعصاه السوداء والمسدس يتطوّح على جنبِه الأيسر. شرع بلا استئذان يخلع أوتاد الخيمة. نظر إلينا كما ينظر إلى سرب من الجراد قبل أن يتطلف بالرد على دهشتنا.

- لقد تقرّرَ نقلُكم من هنا.

دار أبي حول نفسه كالفرخة المذبوحة وإذ نادت أمي على الأبيض صارخةً لم يلمْها؛ بل اندفع إلى متجره ضارعًا، وإذ خرج الأبيض يبتسمُ للشرطي ويزرر عباءته المقصبة؛ ظهر أبي بجانبه شجرة بلوط تساقطت أوراقُها على غير العادة. قال أبي بمسكنة ابنثقت عن صوت مشروخ.

- انظر... هل يرضيك هذا يا مختار؟

حدجَه الأبيض بنظرة فاترة ثم أبدى اندهاشه من حرقة أبي.

- كلُّ ما هناك أننا سنوسع المسجد.

ثم اندفع يعاون الشرطي في خلع الأوتاد وبعثرة المتاع، مؤكّدًا على دور المساجد في جمع شمل الناس واجتماعهم على كلمة واحدة، مُعدّدا آلاء الثواب والخير العميم الذي يصيب المؤمنين حين يتخلّون عن متاع الدنيا في سبيل الدار الباقية؛ دار الخلود..

عادَ أبي يدور حول نفسه كالفرخة المذبوحة، ثم اندفع إلى الأبيض، خلعَ عنه عباءته، مزّقها ثم انقض عليه وانهالَ عليه صفعًا وركلا، أسقطه أرضًا وجثمَ على صدره مهددًا أن سيستل روحَه ويرسله إلى الدار الآخرة التي يشتهي. انقضّ الشرطي بعصاه يخلص الأبيض، وإذ أدرك أبي أنه هالك وأن هذا الشرطي أداة ينفذ الأبيض من خلاله مآربه؛ استولى على العصا والمسدس وراح يطارده حتى أدخله المخفر.

حين عاد كان حاسر الرأس وقمبازه ممزّقًا تمامًا. عاد بوجه مجبول بالدماء. أقعى على الأرض يغالب الدموعَ فتغلبه إلى أن سمعناه يقول بصوته المطحون بالأسى.

- انصبوا الخيمة إلى أن يأتي الله بالفرج.

المعادلةُ الصَعبة

تلك الصرخة الذبيحةُ التي أطلقتها «محاسن» زوجتُه قصمَت ظهرَ حساباته، قلبت موازينَه رأسًا على عقب. تلك الصرخةُ أرسلَت عليه أضواءها الكاشفة ففاجأته عاريًا حتى من ورقة التوت. فاجأته وهو يضع يده في يد الذئب، ويدفعُ بها دون أن يدري إلى فكّيه الفاغرين نهمًا وانتظارًا حثيثًا لسقوط الضحايا.

تحيّر لحظتَها كيف يعود إلى الخيمة وبأي وجه يمكنه أن يقابلَ محاسن؛ وقد حملَ الظنون بها منذ هبطا المخيم نعشًا جاهزًا في عينيه وملامحه وفي صوته المسحوق ذرّاتٍ من الرمل الحار.

تحيّر كيف انقلب على ذاته دفعة واحدة فسحبَها من يدها إلى النار، إلى السعير بعدما كان يخشى عليها من رماد العيون المنطفئة بالفقر والمرض وسوء التغذية. أين كان عقله؟ أين كرامته؟ أين تلك الغيرةُ المتأججة والظنون تستبيحه خيلُها صبحًا وظهرًا ومساء؟

منذ هبط بها من الساحلَ إلى هذا المخيم المُزري في مستنقع الغور؛ وجملة واحدة تفرقع في رأسه كحبّات الذرة في المقلى «إن حدثَ وخانتني محاسن فلن يكون هذا إلا مع المختار، أو موظفي الوكالة، أو الشرطي» ولمّا وجد هذه الجملة طويلة

شعرَ بأن كل كلمة منها رصاصةً حارقة تستقر في الأحشاء؛ لذا اختزلَها في جملة قصيرة مركّزة. «إن خانتني فمع كلّ بذلة مكوية نظيفة».

وجدَ ترددَها راحةً نسبية، فهي قصيرة نوعًا، مركّزة، وسهلة الحفظ، والأهم من هذا كله تعفيه من التخصيص، فلا يقع تحت طائلةِ القانون إذا بلغت ظنونه تلك الرؤوس الكبيرة بأنه يتّهمها بالانحراف؛ وتصيّد النساء الجميلات؛ يعبرون إليهن من نافذة الفقر وسوء التغذية باعتبارها نقطة الضعف الوحيدة في بنيان الصمود.

وإذ أعجبته فصاحتُه وأرّقته فطِن إلى أنه بهذا يَدخُل ويُدخِل محاسنَ معه دائرة التعميم. دائرة واسعة تجبره على أن يترك العمل المضني في بيارة الموز «بيارة الخرّوبي» ويُخرج عينيه من وجهه تلاحقان زوجته أينما ذهبت، تلاحقان كل ذي بذلة وإن كان مَنبَتُها «البُقَج» التي تتصدق بها وكالة الغيث.

لام نفسه على غفلته: «بدلًا من أن تحصرَ المراقبة في أشخاصٍ قلائلَ رحتَ تبعثرُ جهدكَ سدى. تلك الرؤوس لا غيرها تدخل المكاتب وتنصب الشباك لا في الطرقات المُتربة كما تتوهم.

إنها تلك الرؤوس وتلك المكاتب المقفلة التي لا بد لكل فرد في المخيم من دخولها شاءَ أم أبى. يرِدُها ليشربَ من نبع الزئبق. الوعود والمراوغة من نصيب الرجال والنساء الدميمات؛ أما خاتم سليمان فيندس طواعيةً في إصبع كل من لها حظّ من الجمال. لا يحاصرُها الإحصاء الموجع ولا يرفعُ سيفَه إلى عنقها كل يوم.

لها امتيازات يرمي بطلُها على أسرتها بطاقات مزوّرة، خيمة جديدة، وفي موسم «البُقج» تنالُ الأفضل والجديد؛ وما عليها إلا أن تلبسَ وتتلبّس في المخيم، أو في طريقها إلى تلك المكاتب؛ إلى تلك الشباك المنصوبة التي تطبقُ على الفراشات الملوّنة وتلفظ الذباب، فيتساقطُ بعيدًا ويهلك بين فكي الفقر والمرض وسوء التغذية.

وإذ حامَ طويلا في التعميم، في تلك الدوائر الواسعة أرهقته المراقبةُ وقطَعَت مزرابَ تلك القروش القليلة التي يقبضها كل يوم من يد الخرّوبي المحلّاة بالخواتم، والمضمّخة بالعطر. ارتاح من التعب المضني في البيارة، تخلّص من العصارة اللزجة تنزفُ على ملابسه دمًا كالصديد، ارتاح من عصا الخرّوبي المتحفّزة على ظهره وظهور العمّال كلما رفعوها قليلا كيلا تتيبس.

ارتاح من هذا كله حقّا بيد أنه وجد عذابًا آخر في انتظاره، ينزف العذابُ من الأبواب المجاورة، من الطرقات، من تلك المكاتب، من الشباك. ينزف من كل شبر تكون فيه محاسن، حين تكون في الخيمة، حين تحمل جرّتها إلى البئر، حين تصطف في طابور المؤن الطويل تحت شمسٍ خلعت ثيابها وتعرّت لتستحمّ في المهد.

ألفى نفسَه يتبعها أينما ذهبت. يراقبُها من بعيد. يقطعُ النهارَ بين البيت والطرقات ولا يستريح حتى في ساعات الليل ومحاسن بين ذراعيه، يحاصرُها خشيةَ أن تفلتَ منه وتندسَّ في بذلة جديدة نظيفة وتتوارى في زاوية مهجورة؛ أو في واحد من تلك المكاتب المغلقة على ذئاب تتربص بكل ذات حاجة.

تحوّل إلى كلب حراسة، يلهث تعبًا وإرهاقًا حتّى يدركه الليل فترتخي ذراعاه عن جسد محاسن الباذخ دونما قصدٍ منه. يقضي الليل ساهرًا يحصي عليها أنفاسها وكم مرة تتقلب على جنبيها، أو كم مرة تقضي حاجتها في المرحاض العمومي، وكم يستغرق هذا كل مرة! فإن طال غيابُها أكثر مما يجب يلحق بها ويقف أمام الباب يستحثّها على الإسراع والخروج، ثم لا يجد غضاضةً بعد خروجها في أن يتفقد مكانًا قضت فيه زمنًا ذبحه من الوريد للوريد.

وإذ اكتشفَ أن الليل لا يقل عذابًا عن النهار ضيّق تلك الدائرة وحصَرها في مكاتب وكالة الغوث والمختار والشرطي. «إن أفلتت محاسن من هؤلاء فأنا بخير» بيد أنه لم يترك الشك ولم يعد إلى البيّارة. وجد في هذا خلاصًا من الخروبي بعصاه وشتائمه التي لا تنقطع، كما وجد في الغيرة وسيلة تعرف محاسن عن طريقها كم يحبها، وأن هذا الحب لم تقطع الهجرةُ حبلَه السري، ولم يفصم المخيم عُرَاه المتينة رغم ما اعتراه من برود؛ وما اعتراها بعد شهر العسل مباشرة.

هذا الشهر الذي غمسَ رأسُه في مدينته على الساحل وترك ذيلَه ينسحب إلى المخيم. شهرٌ واحد بيد أنه ارتشف فيه العسل حتى آخر قطرة من ثغر محاسن، من جسدها الباذخ وجمالها الذي يغطّي منه البدرُ وجهه خجلا واندحارًا.

ما زال يذكر تلك العَقبات التي ارتفعت جبالا عالية في طريقه إلى محاسن، جبالًا ذللها آنذاك حالُه الميسورة وأملاكه الشاسعة من بيّارات البرتقال. ذللها حبُّه لمحاسن وحبّها له، ففرشَ الطريق إلى البيت ذي القباب البيضاء العالية سجادةً خضراء؛ تمرُّ ببيارات البرتقال حيث تبني العصافير أعشاشها دون أن يفزعَها عن بيضها أحد.

كلّما تذكر هذا كلما تذكّر رحلةَ أيّار وانحداره من الساحل إلى الغور، من تلك السجادة الخضراء إلى مخيم تثور زوابعُه مغازلَ لا يهدأ جنونُها إلا بعد أن يصدرَ الإذن لها من الشمس

الغاربة، يفورُ من صدره الغيظ أرتالا محمّلة بالشرر الحارق، وإذ يتذكر أن محاسن ما زالت معه يمسّه الارتياح مسّا خفيفًا إلى أن يزرعَه ويحصدَه الشك من جديد.

«ما زالت جميلةً كما عهدتها. لم يمتصها الفقرُ وسوء التغذية. ليست جميلةً وحسب، بل فاتنة، تدير الرؤوس وتضرب قلبَ من يراها بسهم موجعة. إنها باختصار من ذلك النوع الذي يجلب لصاحبه الدمار، ولأنك تشاركها في هذه الفتنة عرّضت نفسَك للدمار دون أن تدري؛ بل من حيث إصرارك على مراقبتها والشك فيها...

ولكنك لا تستطيع غير هذا مُحتملا نصال الشك وقطيعة الرزق وتحوّلك إلى كلب حراسة؛ تلهثُ في النهار والليل بساقين هزيلتين وفمٍ مفتوح ينصب على الواقع المرير خيمة سوداء. بت تعتقدُ أنها السبب في شحوبك وهزالك وعينيك الزائغتين، تتقاسم ورحلةُ أيار عملية الفتك بك عن قصد وتدبير مسبق...

إنها لا تعرف أنك تراقبها وترصدها حيثما ذهبت، ولكنها تعرف غيرتَك القاتلة ومع ذلك لا تبادر إلى نفي الظنون. كيف يتسنّى لها النفي أو يتسنى لك الخروج من دائرة الظن وفتنتُها أشرعةٌ لم تمزّقها رحلةُ أيار أو رياحُ الغور الساخنة؟ تعرف أنك تحبها لهذا تغار عليها من العيون والآذان، من طير مرّ

بالمخيم ورفع عقيرتَه بالصياح. لم يتكلم الحب بينكما في هذا المخيم، بيد أنه موجود جمرات متوهجة تحت كثبان الرماد...

لقد غدا الحبّ مواطِنًا من الدرجة العاشرة مثلك ولكنه موجود، وما هذه الغيرة القاتلة إلا ساريةٌ عاليةٌ لا يضيرُها أنها سوداء كالغراب. أنت تحبّها ومن حقّك أن تغار عليها، أن ترسلَ الغيرةَ أنهارًا من نار مسعورة، لهذا فلن تتردد في ذبحها لو زلّت قدمُها وسقطَت في طين المخيم، أو خلفَ أبواب تلك المكاتب المغلقة على الذئاب».

كان موقنًا أنها لا تعرف بأنه يراقبها، أما تركه العمل والقروش فقد أرجعه إلى قسوة وشراسة الخرّوبي. أرجعه إلى تمزّقه بعد انقلابه من مالك لمئات الأفدنة على الساحل إلى مجرد عامل بالمياومة. كان موقنًا من هذا لذا فاجأه قولها أخيرًا.

- إنك تراقبني... لم تترك العمل إلا لتراقبني. أعرف هذا جيّدًا.

قالتها بلا مواربة وبلهجة أثقلَها طول الصبر... أردفت.

- أنت حرّ في شكوكك ولكن تركك للعمل فاجعة... فاجعة حقيقية.

وقبل أن يستردَّ أنفاسَه من صراحتها، من بقرِها دماملِه المستوره أردفت بحسم.

- ستذهب من الغد إلى البيارة.

ثم والحزنُ يلوي عنقَها وصوتها.

- وسأحمل لكَ كلَّ يوم الغداء، وإن شئت أبقى أمام عينيك.

تكسّر صوتُها المذبوحُ في صدره نصالًا حادّة بيد أنه لم يجد الجرأةَ اللازمة للقول أنه يعفيها من الشك والتعب. هزَّ رأسه موافقًا ومؤكّدًا في الوقت نفسه على ضرورة أن تأتي له كل يوم بالغداء؛ وظن أنها صدّقته حين قال ضاحكًا.

- حين أراكِ يفرُّ مني التعبُ وأحتملُ فظاظةَ الخرّوبي ولو أن وجودَك لا يُنسيني أنني أصبحتُ عامًلا بالمياومة.

لم يحس أنه إنما أضاف إلى قائمة المشبوهين واحدًا يشبهُ المختار والشرطي وموظفي وكالة الغوث؛ ببذلته الجديدة النظيفةِ وعينيه الماكرتين من تحت النظارة؛ مضيفًا إلى كل هذا عصا فضيّة وبندقية صيد لا تفارق كتفه. لقد رأى كيف خرجت عينيه من وجهه حين جاءت محاسن بالغداء. عينان تفتِّتَان الصخر، تذيبانه من نظرة واحدة. أشفقَ على محاسن من الانصهار، وكاد أن يشفق على نفسه لولا أن ناداه

الخروبي فهرَع إليه يلهث. رآه يشير إلى الصرّة ومحاسن توزّع ما فيها على الأرض.

- ما هذا؟ بندورة وبصل ناشف؟!

طوّح بالصرة بعيدًا كجروٍ ميت، أو كطائر من تلك الطيور التي يفتتها بالرصاص وينثر لحمَها على شجر الموز، ولا يترك فيها مكانًا يطبق عليه الكلب السلوقي الأحمر فكّيه. تناول مفتاحا صغيرا من جيبه. دفعه إلى محاسن قائلا بلهجة تقطر براءة وهو يشير إلى كوخ صغير بناه خصيصا ليقضي فيه قيلولةَ ما بعد الغداء، ولأغراض يهجسُ العمال بأسرارِها دون أن يسمحوا لأصواتهم بالارتفاع أكثر من اللازم.

- تجدين هناك لحمًا وخضارا وفاكهة، ونارًا أيضًا، اطبخي لنا شيئًا نأكله.

ظلّت يدها جثَّةً هامدة إلى أن تَلقّت من زوجها إشارة القبول. أخذت المفتاحَ وقصَدَت الكوخ. سمعه يقول بلهجته البريئة الموزونة فيما يدٌ رقيقة تنام على كتفه.

- ما عليها إلا أن تأتي كل يوم، تحضّر لنا الغداء، أعني لي ولها ولك.

مرقت إلى عينيه ارتعاشةُ يدها وهي تأخذ المفتاح، ثم وهي مدبرة بقامتها المديدة الملتفّة، حاول أن يصرخ بها أن تعود.

ضغطَ الفأس قبل أن يسحبَها الخروبي منه ويقوده إلى شجرة ظليلة.

- إنك تجهد نفسك يا عزيزي.

ثم وهو يطوح بالفأس بعيدًا.

- من اليوم أنتَ مراقب على العمّال... لقد عينتك مراقبًا.

ثم وهو يتخلى له عن النظارة والعصا الفضية.

- ضع هذه على عينيك خشيةَ الشمس؛ واضرب بهذه من يرفع ظهره من هؤلاء. حذارِ أن تأخذك بهم رحمة أو شفقة.

أحس بيده الرقيقة تربِّتُ على كتفه ثم سمعه يقول وهو يمضي كالحصان الجامح.

- لقد مللت المراقبة. مللتُ هؤلاء الملاعين. راقبهم جيدًا فإن لي مهمات أخرى.

أسكرَتهُ الوظيفةُ الجديدة. مسحت من رأسه ظنونًا طوّقته جذورها منذ هبط ومحاسن المخيم. لقد نبتت تلك الظنون مجددًا حين جاءت محاسن بالغداء، ولكن سرعان ما تبخّرت وهو يضع على عينيه النظارة السوداء ويمسك بالعصا. حدّق إلى الخروبي وهو ذاهب تتطوح البندقية على كتفه.

قال إنه ذاهب إلى الصيد. أبهجه أن تخلو له الساحة والبيّارة ليراقب العمال عن كثب. أبهجه ألا يترك هواية المراقبة وأن تصبح الهواية احترافًا. «كنت تراقبُ زوجتك، وها أنتَ تضع قدميك على الطريق الصحيحة بمراقبة هؤلاء الملاعين، فوق هذا وذاك سيكون باستطاعتك أن تأكل اللحم كل يوم، اللحم الذي لم تعد تراه في غير المناسبات... ستعقد أسنانُك وأضراسك وثيقةَ الصلح الأخير، وكذا محاسن زوجتك سيدير لها الفقر ظهره وسوء التغذية وتعرف يقينًا أن عيشة المخيم ليست نكدًا كلُّها».

ابتهجَ كثيرًا إذ صار بإمكانه أن يرتاح في النهار والليل متخلّصًا من شكوكه وغيرته، متخلصًا من التعب. صار مراقبًا وصارت محاسن لا تغيب عن ناظريه. كان موقنًا أنها فرحة مثله، بل ويقتلها الفرح، لذا لم يفهم في البدء رفضها الذهاب إلى الكوخ ولا قولها.

- ماذا جرى لك؟ ألم يعد في وجهك دم؟

مرقَ صوتُها في الفضاء صاروخًا لم يُخلّف ولو سحابةً صغيرة من الدخان، وإذ كررت قولَها تعيدُ إليه الذاكرة والفهم وتقليب الأمور على أكثر من وجه؛ هبَطت عليه الدهشةُ حجارة غليظة، هبطت كزخات المطر... الدهشة من إعلانها العصيان.

هدرَ بصوت كالرعد.

- بل ستذهبين وتحضّرين لنا الغداء.

تغاضى عن رأسها المتطامن ذِلَّة وقهرًا. تغاضى عن النظرة الحادّة حين رفعَت وجهُها إليه ومضت إلى الكوخ.

أعجبته سطوتُه فراح يراقب العمّال محذرًا إياهم من الوقوف بين الفينة والفينة كيلا تتيبس ظهورهم. تصوّرَ أنه قائدٌ لجيش عتيٍّ وهذه العصا الفضية هي عصا القيادة إلى أن اقتحمته تلك الصرخةُ لذبيحٍ في الكوخ؛ وذاك الطلق الناري المفعم بالحقد الذي تشابَه مع طلق آخر سبقه بثوانٍ قليلة.

التفَتَ فرأى محاسن خارجة من الكوخ ركضًا والبندقية في يدها. رأى من بعيد الشررَ في عينيها. تأكّد أنها تركض نحوه لتفرّغ فيه الرصاصات الباقية. وإذ ذاك ألقى النظارةَ والعصا وولّى هاربًا وسؤال ملحاح يطاردُه: أنْ كيف سيعود إلى الخيمة وبأي وجه يقابل محاسن؟!

أشياءُ أخرى والخَجل

هذه المرة الثانيةُ في رحلة العمر التي لا يمكنُه أن يرفع رأسه فيها، وهي الأولى بعد أن تشكّل المخيمُ أسرابًا من الذباب تحت قدميّ جبل التجربةِ بصخوره السوداء. أذهلته في البداية بسوادها الفاحم وتلاحمِها ولمعانِها؛ كلَّما تكسَّرَ عليها عنفوانُ الشمس لحظةَ الشروق.

لم يظن أبدا أن سيكون رأسُه أثقل بكثير من ذاك الجبل. لقد مرّت به مثل هذه الحالة من قبل بيد أنه لم يكن هناك في المجدلِ جبلٌ صخري ليجري مقارنةً بين ثِقَلَين هائِلين، رأسه والجبل. كلما أرسلَ عينيه الغائمتين من تحت الكوفية ومن بين الخيام إلى الجبلِ يذهلُه أن عضلاتِ الرقبة لا تنهضُ بالرأس الثقيل.

حين فارق المجدلَ ظلَّ يتلفّتُ خلفه إلى أن تحولت المدينة إلى نقطة صغيرة يلفُّها الدخان، دخان الحرائق ودخان القلب المفطور حزنا لفراقها. عندها لم تفارق عيناه موطىء القدمين إلى أن وجد نفسَه يدخلُ المخيم، هذه المقبرة في النهار كشأنه في الليل، يقبضُ الأرواحَ ويتركها هائمة تمشي على سيقان أفرعها طحينُ وكالة الغوث الأبيض من نسغ الحياة، فباتت قصباتٍ فارغة تصفّرُ فيها الريح وتبعثرها في الطرقات الضيّقة.

لم يدخل الخجلُ أو ثقل الرأس تلك المرة في الحسبان؛ فالرؤوسُ لحظتها كانت كلها جبالا من الرصاص. الحكاية الأولى أبعد من ذلك بكثير، غير أنها حدثت في المجدل أيام العز والوجاهة والكرم المفرط، اتخذ الخجلُ هيئةَ المنشار يفسّخُ لحمَه قبل سقطته. الكرمُ الذي تخلى عنه في لحظة جبن تافهة هو ما أقالَه من تلك السَقطَة؛ فظلَّ كما كان منارةً يهتدي بها المسافرون وأبناء السبيل. ظلَّت يدُه هي العليا.

كان يومها في حقل البطيخ الشاسع المترامي الأطراف. كان في الخيمة تحديدا يشربُ القهوة، ويدخن النارجيلة مسافرا بعينيه في الحقل الشاسع؛ يدبُّ فيه العمّال كالنمل بينما الطيورُ تحوم في الجو متحيّنَة فرصةَ الانقضاض على أرتال البطيخ؛ إذا ما خلعت إحداها ثوبها الأخضر وبانت جراحُها الحمراء.

كان الجوعابقا بالسحر والوجاهة والكبرياء، تكمّلُه سحرًا رائحةُ القهوة تمسدُ بأصابعها النديّة شاربيه فينتفخ صدرُه لهذا الحنان المدهش، والموسم الخصب يرسم بين عينيه آمالا عريضة بأن يحتفظ باسمه متوهّجا لدى وجهاء القرى المجاورة؛ حتى إذا ما قالوا «أبو العبد» ذاب الشهد في أفواههم؛ وفي آذان السامعين على حد سواء.

صهل حصانُه الأشهب أمام الخيمة فأكمل الصهيلُ دائرةَ الرضى والفأل بأن ستأتي الشاحنات عما قريب؛ تنقل البطيخ في أول وجبة إلى القدس... تأتي الشاحنات فيأتي الرزقُ العميم ينهضُ بواجبات الضيافة وتظل يده هي العليا، يد «أبو العبد» التي يعرفها الجميع سخيّة نديّة لا يطالها الجفاف.

أيقظه من أحلامه تلك دخول ابن أخيه عليه مُستبشرًا.

- لقد جاءك ضيوف.

وثب من مكانه. دار في جنباتِ الخيمة كمن تلقّى على رأسه ضربة مفاجئة، حدّق إليه الفتى غير مصدق؛ وإذ رآه يرتجف تعجّب أن كيف يتحول الرجال الكبار إلى أكوامٍ من الرمل النديّ، تظلّ متماسكة إلى أن تدوسَها الشمس مُعطيةً الإذنَ للريح ببعثرتها أشلاء. لقد خبِرَ عمَّه طويلا. وخبر فرحته الكبرى حين يأتيه ضيوف، لذا لم يفهم قوله بخوف.

- هذه مصيبة سيأخذون حمولةَ شاحنةٍ كاملة من البطيخ.

دفع ابن أخيه خارجا وراح يُزرّر الخيمة.

- اخرج إليهم بالحال... أنا لست موجودا... لستُ موجودًا. هل تفهم؟

في تلك اللحظة تماما اقتحمته حمحمةُ الخيل، وضرباتُ حوافرَ اهتزت لها أطناب الخيمة قبل أن تغرَقَ بجملتها في الغبار. غَرقَ في الرهبة حتى ركبتيه. سمع ابن أخيه ينفي وجودَه بصوت مكسور؛ ومن ثم أحدهم يقول متعجبا.

ـ ولكن ها هنا حصانه!

ضرب رأسَه بعمود الخيمة. كيف لم يفطن للحصان؟ وإذ هم بالخروج سمع كبيرُهم يقول نادما.

ـ هيا يارجال، «فأبو العبد» قد مات.

سقط في رأسه شلالٌ من الصخر، وكأنما انزلق عنه سروالُه أمام حشدٍ من الناس، راح يدور في الخيمة كثور ذبيح ثم انطلق إلى الخارج. وثبَ على ظهر الحصان، لكزَه بقسوة وراح يركض باتجاه بحرٍ الغبار الصاعد أمواجا إثرَ أمواج، كلُّ موجة منها تطويه كسجادة مهترئة وتلقيه على الأعتاب ليمسحَ الرجالُ بها أرجلهم؛ قبل أن يدخلوا مضافتَه التي طالما شهدت جلوسَه في الصدر.

لحق بالرجال. أوقفَهم... كان رأسُه ثقيلا كالرصاص، أقسم أن يعودوا معه، وبالكاد حين قبلوا استطاع أن يرفعَ هذا الرأس، أخذهم إلى البيت وهناك نحر الكِباش، لكلِّ رجلٍ منهم كبش. ثم صحبهم إلى الحقل ونادى العمال مُصدرا أمرَه..

ـ اخلعوا البطيخ، لا تبقوا على بيت واحد منه.

ولكي يبددَ دهشةَ الرجال راح يشرح لهم كاذبًا لماذا أنكر وجوده. وحين راحوا يضحكون لظنونهم السخيفة وهذه المفارقة استطاع أن يرفعَ رأسه؛ وينظر إليهم فردا فردا ويفرش لهم الترحاب.

تلك هي الحكاية الأولى. حكاية قديمة كاد ينساها لولا أن التاريخ يتدحرجُ كالكرة، كل نقطة منها تعتبر في حد ذاتها مركزا وحدًّا فاصلا بين الثبات وفقدان التوازن. وجهُ الخلاف بين الحالتين أنه هناك في المجدل استطاع أن يرفع رأسه في نهاية الأمر. رفعَه الكرمُ الزائد والسيرةُ الحميدة.

كان الكرمُ آنذاك رجلا يمشي بخيلاء، يلوّح بعصاه الفضية ويدخل البيوت بلا استئذان، كان له نكهة مميزة بين ثغاء الماشية وخوابي القمح. أما هذه المرة، أما في هذا المخيم المقبرة فليس غير وكالة الغوث والطحين الأبيض وزيت المرجرين. ليس غير هذي البيوت الطينية التي تبدو كشواهد قبور منسيّةٍ تضع الغربانُ في سقوفها البيض؛ وحين يفقس تدرك فراخها الدهشة والعجب.

لقد كفّرَ أبو العبد عن ذنبه في المرة الأولى. أما جريرتُه الثانية فلم يفعلها عن سبق إصرار وترصد وحسب، بل كان مصرًّا أيضًا على أن يقطع رأسَ الكرم ويرمي جثته للغربان. ولكن

ما يذهله أن الضربةَ نزلت هذه المرة بابن أخيه، ذلك الذي كان فتى حين قصدَ الرجالُ حقلَ البطيخ في المجدل؛ وشاهد كيف تجمّع على نفسه كالقنفذ.

ما يعصر قلبَه وما يجعل رأسَه أثقلَ من جبل التجربة أن ابن أخيه لابد قد شاهد في عينيه الكفرَ بكلّ القيم والروابط؛ والرغبةَ في الصراع حتى الموت على أن يتخلى عن قطعة واحدة من اللحم الذي اشتهاه؛ وانتظرَه طويلا قبل أن يأتي موعدُ توزيع المؤن، فيتخلى عن السكر والمرجرين مقابل كيلو من لحم الجمل.

أمر زوجتَه أن تطبخَه ثم حمل الطبقَ وتسللَ إلى الخيمة ليكتشف عالَمًا طال به عهده، ثم ليكتشف أن أسنانه ما عادت تطحنُ الصوّان. فاجأه صوتُ ابن أخيه يناديه وهو واقف أمام الخيمة. ارتجفَ قلبُه كلحظةِ أن أخبره بقدوم الرجال في المجدل.

دس الطبقَ تحت الحصير المهترىء، وجلس ينتظر على مضض مُحمِّلًا حظَّه النحس مجيءَ ابن أخيه في هذه اللحظة بالذات، لحظةَ الاكتشاف المدهشة وعناق العائدين. حدجَه بنظرة قلقة وهو يقرفص ثم وهو يستريح في جلسته.

جلوسه بهذه الطريقة يشي بأنه لم يأت لغرضٍ عابر، بل حدسَ أن الرائحةَ هي ما ساقت أنفه فجاء يعذّبه عامدا،

ويحرق الانتظار الطويل، ويحيله كومةً من الرماد، وكما فضحَه الحصانُ أول مرة فضحته الرائحةُ والبخار المتصاعدُ من تحت الحصير هذه المرة أيضا، لاحظ أنفَه يطاردُ الرائحةَ قبل أن تحاصرَ عيناه البخارَ المتصاعد.

هبط الخوفُ في قلبه حجارةً غليظة، حاول أن يداريه بأيِّ كلام بيد أنه سأل بجفاء.

- ماذا تريد؟

قلقل رأسَه بمعنى لا شيء؛ ثم انسحب إلى الخارج قطّا خذلته قواه باصطياد فأر؛ ساحبًا خلفَه ذيولا من الخيبة والشك القاتل.

سقط رأسُه على صدره، همّ أن يلحق بابن أخيه ويعيدَه ليشاركه الأكل فلم يكن هناك حصانٌ أمام الخيمة يمتطيه، ولا كباشٌ ينحرُها له، وإذ سحب الطبق اكتشف إلى جانب تهافت الأسنان أن شهيَّتَه نزلت إلى بئر سحيقة الغور. ألقى الطبقَ جانبًا وإحساس قَتّال يضيّقُ عليه الخناقَ؛ فيرى نفسَه حشرةً تافهة تغرس مؤخرتها في وحل المخيم؛ فيما رأسُها أثقل بكثير من جبل التجربةِ وصخورِه السوداء.

الوجهُ الثاني

كانت أمُّه دائمًا تعتبرُه عاقلا، وأكبرَ من عمره بكثير. تشمخُ برأسها والنسوة من حولها أمام الخيمة.

- لقد عوَّضني الله به خيرًا عن المرحوم.

وتؤكد واحدةٌ منهن أو أكثر صدقَ زعمِها.

- اسم الله يحرسه، أفضل من بعض الرجال.

لذا لم تُدخِل نفسَها في عداد الأرامل الكثر اللاتي تحبلُ بأحزانهن الخيام. يلذُّ لها فقط أن تتحدث كيف استشهدَ زوجها «أبوه» وهو يدافعُ العصاباتِ اليهودية عن بيتهم في الرملة. ثم تحتويه بنظرة دافقة بالحب.

- لم يمت من أنجبَ مثلَ معزوز.

تمدّ عينيها سلالم عالية، يتسَلّقُها ويصعدُ إلى الذرى حيث والده هناك يتدثّرُ بالغيم. ولكنها هذه المرة أحرقت ركامَ الحبِّ دفعةً واحدة. صرفَت بأسنانها، وصكَّت وجهها ورمته بقلة العقل والنفخة الكاذبة.

- ماذا تظن نفسك؟ ابن المندوب السامي يا خي؟!

حرمَته من البيضة بالمرجرين بعدما غاصت فيه لهجتُها الغاضبة مشارطَ حادة؛ مزّقته إربا وشرائحَ تلعبُ بها ريحُ الغور الساخنة. كانت دائما تسمعه وتفهمه، ولكنها المرة أغلقت أذنيها ووصَفَت أعذارَه بأنها واهية. أدرك أن «حسن» جارَه في البيت وفي مقعد الدراسة، قد سبقَه إليها وحدَّثها بكل شيء مما سبَّبَ لها الغضب الماحق.

بدأت شرارةُ الغضب حين طرح السلام. أدارت له ظهرَها، غير أنه لمحَ من خلال ثوبها الذي فقد لونه الأصلي أنها تتنفسُ بعنف؛ بما ينذر بانفجارها الوشيك. استدارت إليه فجأة. أرسل إليه وجهُها قسوةً نَدَرَ أن خصّته بها حتى عندما يفتعل المشاجرات مع أبناء الجيران؛ وهم ينتزعون أوتاد الخيمة وتلك القطع الخشبية المستديرة ليصنع منها الأولاد عجلات والبنات قلائد.

فاجأه غضبها فاغتال كلاما ظلّ طول الطريق من المدرسة إلى الخيمة يرتّبُه في رأسه ليزفّه إليها. توقع أن تمتلىء زهوا وفخارا وتؤكد للنسوة أن والده لم يمت بعدما يخبرها بما فعل اليوم.... ماذا فعل؟

كان في غرفة الصف حين قطع الأستاذ درسَ التاريخ، ومدَّ رأسَه من النافذة قائلا بلهجة فيها الكثير من التحذير والمراوغة معا.

- جاءت لجنة مطعم الوكالة.

لم يفهم في البدء ما علاقة المطعم بالمدرسة؛ غير أنه ارتاح كثيرا لأنها ليست بعثة التطعيم ضد الجدري، فآثار هذا ما زالت تعلن عن نفسها في ذراعه. نظر إلى الطلبة من حوله، وإلى جاره حسن. كانوا بلا استثناء فرحين، ولكنها فرحة مشوبة بالقلق؛ والكل يخشى ألا يقعَ اختيار اللجنة عليه.

لم يصوّت أحد لصالحه وهو بالنسبة لهم ممتلىء الوجه. لم يقلقه الأمر كثيرا إلى أن مال عليه حسن محذرًا.

- لن يختاروك إذا ما أبقَيتَ وجهَك على هذا الوضع.

ولمّا سأله بعينيه عما عساه يفعل، قال بمودة.

- افعل هكذا.

وطوى صدغيه إلى الداخل كما فعلَ الصبية ممن لم يُرشَّحوا لنيل بطاقةِ المطعم. ولما غدا وجهُ حسن فظيعا ومضحكا على هذه الصورة، هزَّ رأسه بإباء.

- لا. لن أفعل.

هزّ حسن كتفيه وظل وجهه مطويا داخل شدقيه على تلك الصورة المضحكة؛ فيما شرع الأستاذ ينقرُ بالعصا على اللوح إلى أن تفشّى الصمتُ الحذِر. تابع شرحَ كيف دخلت

الجيوشُ إلى فلسطين لإنقاذ أهلها من الذبح. طغَت الهمهمات على صوته فآثر الصمت إلى أن دخل رجال ثلاثة غرفةَ الصف دخولَ الفاتحين.

لأول وهلة كرِهَ الحمرةَ النافرة من وجوهم. كره تلك النظرات الشبيهة بما يجترحُه السماسرة في سوق الماشية. تحلّقوا من حول الأستاذ يتهامسون فيما عيونهم ترسل جيشا من الريبة إلى الوجوه الصفراء الضامرة بالفطرة؛ وتلك التي طُويت بمهارة.

توغّلوا داخلَ الحجرة يقلّبون الوجوهَ الصغيرة بين أيديهم. يهزّون رؤوسهم أحيانًا إلى أسفل فيُعطى صبيٌّ بطاقةً صفراء، أو يهزون هذي الرؤوس ويمطون شفاههم فيتركون حسرةً لا تُمحى في عيني صبي آخر. قال في سرّه «إنها مهزلة».

لقد اعتادت أمّه أن تجس زوج الحمام أو دجاجة بأصابعها العشر قبل أن تشتيرها أو تبيعها. هي أيضا تمطّ شفتيها باحتقار.

«إنَّها مهزلة ولن يشترك فيها». نفخ شدقيه أكثر ففرّ الرجال عنه فيما لوّح حسن له بالبطاقة شامتا. لحظتها فقط أحسّ بالغبن، ولم يجد غيرَ الأستاذ يُحمّله تبعةَ الإخفاق.

لقد رآه وهو ينفخ شدقيه عامدا. كان باستطاعته أن ينتهرَه بقسوة، أو يحذره بعينيه على الأقل ولكنه لم يفعل. «إنه أستاذ لعين، يثرثر دائمًا بكلام فارغ وحين تأتي ساعة الحسم يضم يديه إلى صدره ويلتصق بالزاوية».

ظل فريسةَ الإحساس بالغبن إلى أن رن جرس الروَاح. انطلق إلى الخيمة سريعا كي يزفَّ إلى أمه الخبر. ظل يطوّح بحقيبته المصنوعة من قماش مهترىء. يرتبُ في رأسه كلاما كثيرا؛ وكيف أنه رفض تلك المهزلة. توقّع أن تضمه إليها وتقبّله. لم يحسب حسابا لأن يسبقه حسن إليها ويلوّح لها بتلك البطاقة الصفراء مفاخرًا؛ قبل أن ينطلق إلى المطعم لوجبة الغذاء.

أدرك هذا بسرعةِ البرق وقد نالت التجربةُ من ثيابها وكبريائها. لعنته حالَ طرح السلام وحرمته من البيضة بالمرجرين؛ حتى يتعلمَ في المرة التالية ويكون أشطر. حاول أن يشرح لها الأمر. أشاحت بوجهها عنه. مضى إلى رغيف يقضمه على مهل متعجبا من أنها لم تفهمه هذه المرة.

خطُّ البدَاية

حدث ذلك بالضبط في عام النكبة، وقبلَ أن تنتقلَ الأسرة إلى الغور هربًا من البرد؛ والزمهرير يقتحمُ العظام بلا هوادة وينشرُها مِزَقًا على حبال الريح. كان مقدرا له أن يودّع ستة أعوام، وأن يذبح أبوه كبشًا سمينا يوزّع لحمَه على الحرّاثين كما فعلَ طولَ خمسة أعوام. بالنسبة له لم يشاهد أباه يذبحُ كبشا عدَا مرة واحدة؛ عندما قيل له إن عمره الآن خمسة أعوام.

لم يدرِ يومها كم تساوي هذه الخمسة، وحين قارنَها بالكبش الذي يتمرغ في دمه، قال إنها مثله بقرنين معقوفين ورأس ينزف دمًا أحمر. من يومها كَره السنين، لذا لم يحزن لأن أباه لم يذبح كبشًا في عام النكبة. حزن فقط حين تذكَّر والده يوم مولده بأسى ضاربا كفا بكف.

- كلُّ شيء قد تغير.

ونظر إلى السماء التي توارت زرقتُها تحت غيوم تتنادى وتتجمعُ تشيّعُها ريحٌ باردة. إنه _على رأي أمه_ جوُّ الخليل. ما فتئت تقول بأسى وقهرٍ هذا منذ أن أخذت الريح البادرة تلعبُ بالخيام لعبةَ النذِّ لغير الند. تصدى لها أبوه هذه المرة بعنف وخشونةٍ فظّة.

ـ مهما حدث فلن ننزل إلى الغور.

أقسَمَت أن البرد القارس هو من يدفعها لقولِ هذا، أما كون أخيها قد ذهب بعياله إلى أريحا الدافئة فتلك مسألة أخرى. شعر أبوه أنه كان قاسيا عليها أكثر من اللازم، لذا قال بمودة يتمنى لو ينالُه جزء يسير منها.

ـ هنا يا بديعة أقرب إلى الرملة.

فرك يديه في لحظة نادرة من الصفاء.

ـ سنكون أوَّلَ العائدين، أما أريحا فبعيدة.

نسي سريعًا حلمَه بالعودة. تلبَّدت على وجهه غيومٌ أكثر كثافة من غيوم تشرين.

ـ أريحا جهنم. حرُّها لا يطاق في الصيف.

التفتَ لابنهِ فجأة. اختلجت ملامحُه واتسعت عيناه كأنما هي المرة الأولى التي يراه فيها. دمدَمَ بكلام لم تفهمه، غير أن وجهَ أمّه ترجمَ له أن الأب يقارن بين حالهم في المخيم المنسي؛ وبين بلدتهم النائمة في تلك اللحظة أو أنها تستعد للنوم.

لكزت موجةٌ عاتية من الهواء الخيمة فتقوّس جلدُها المهترىء؛ وصرّ العمود بأنين موجع ظهرت آثارُه على

وجه أبيه المتجهّم أصلا. ولما اشتدت وطأةُ الريح وصارت الخيمةُ قاربًا مُتصدعًا في كفِّ بحر هائج؛ ضغط الأبُ نواجذَه وقصفَ بصوت كالرعد.

- البشر لم يرحمونا والسماء لا ترحمنا... إنها أكثر قسوة من البشر.

ودمدمَ بلعنات مُبهمة طغَت على صوت الأم وهي تبتهل أن تمرَّ الليلة على خير. زعقَ الأب وهو يفترسها بعينين تحولتا إلى جمرتين.

- خير! أين الخير؟ هه! أين الخير؟!

وشاءت المصادفةُ أو حظُّها النحس أن تنهمر شآبيبُ من المطر والبرد كالحصى. أخذت تعزفُ على أضلاع الخيمة لحنًا جنائزيا مُؤسيا. سدد الأبُ إليها نظرة من تلك النظرات التي يخصُّ ابنه بها منذ تركوا البلدة والبيت.

- أرأيتِ؟ ها هو الخير قد جاء. ارفعي يديك إلى السماء وادعي لنا بالخير... ادعي.

ولما بدأت السماءُ تنثرُ على المخيم ريشًا أبيض ناعمًا؛ أطلق ضحكةً مُجلجلة وصرخ هازّا قبضته إلى الأعلى.

- مرحبًا بالخير... يا مية أهلا ومرحبا بالخير.... يا هلا يا هلا ورِحب.

لم يفهم في البدء سببا لغضبة الأب وقد شاهدَه من قبل في البلدة يبتهج ويخرّ على ركبتيه شكرًا عندما نزل الثلج. لم يفهم فتكوّم في حجر أمه التي تكوَّمت بدورها على نفسها ولاذت بالصمت. لم يستطع أن يعلن فرحَه لمنظر الريش الناعم الأبيض وهو ينزل بدلال وهدوء. لو لم يقل أبوه ما قال لتحدّى البردَ وخرج يطارده. رسم ضوءُ السراج الباهت على جنبات الخيمة ظلالا شاحبة ترقص بتعب وإجهاد، فاكتملت المأساةُ في يوم كان مقدرًا للأب أن يذبح كبشًا سمينا احتفاءً بمولد ابنه الوحيد... رغم أن أمه كانت مثله ترتجفُ إلا أن حرارةَ الاثنين بدأت تصب في جسده دفئًا لذيذًا فطوى النعاسُ جفنيه فنام.

صحا على أصوات جَلَبَةٍ وزعيق مبحوح من رجال ونساء وصراخ أطفال. انتفض مذعورًا. وجد نفسَه وحيدًا بينما أمه منتصبةٌ في سوط الخيمة ممسكة بالعمود وهو يترنّح يطوّحُها بقسوة وشراسة بينها الريحُ تُصفّر مُنذرةً بالدمار. كان الأبُ يجاهدُ بإزاحة تلالِ الثلج وقد سدَّت بابَ الخيمة. يقوم بعمله صامتًا وقد بارحَه الغضب. مدَّ الأبُ رأسه من الباب فخاله الصغير يبتسم من تحت شاربه الكث. سمعه يقول بصوت وادِع.

- لا تخرج يابني، لا تخرج.

كان مُشمرّا قمبازه وقد سقطت الكوفية عن رأسه فبدا شعرُه الأبيض ينـوسُ مع الريح؛ ويلعبُ على جبهته العريضة. حاول الصغير أن يعرض مساعدته عليه لولا مَغبةُ أن يكون ما بينهما من هدوء مجرد رضا المقهور المغلوب على أمره. صدقَ حدسُه إذ رآه يطوّح بالمعول بعيدًا ويندفع إلى الداخل صارخًا.

- اتركيها... اتركيها تذهب إلى الجحيم.

ركَلَ العمـودَ بقرف فسقط على الجانب الآخر؛ فيما سقطَت الأمُّ خشبةً جامدة بين ذراعيـه. جـعلَ ينفخُ على وجهها ويدلك يديهـا وصـدرهـا حتى إذا دارت عينـاهـا دورة كاملة ابتسم بفرح. ألصقها إلى صدره وأنشأ يعتذر.

- معك حق يا بديعة... جحيم أريحا أفضل.

ثم نترَ جسمَه حاملا أشلاءَ الخيمة على رأسه وكتفيه.

- علينا الآن البحث عن مكان يحمي ابننا من البرد الشرس.

شعر لأول مرة مذ تركوا البلدة أنـه مـوجـود في مكـان من ذاكرة وجسد الأب، وأنه لم ينسه كما توهم. حملَه بين ذراعيه والتفت إلى الأم.

- اتركي كل شيء.

وراح يخوض في غبشَةِ الصباح بين ركام الثلج وهو لا يفتأ يُقبّلُه ويطيّبُ خاطرَه.

- لاتخف يا بني. لا تخف.

بدت له بوابةٌ عريضة لبيتٍ كان يسمعُ والدُه يطرحُ السلامَ على صاحبها بصوت عال؛ وهذا يشرب الشاي ويدخن النارجيلة في الشرفة. أدرك أن بينهما ألفةً ومحبة أكثر بكثير من طرح السلام. وقفَ الأبُ به أمام البوابة وتطلّعَ إلى الأم وفي عينيه رجاء لا يخيب.

- سنأوي إلى بيت «أبو ماجد» يومين أو ثلاثة إلى أن يأتي الفرج.

افترَّ ثغرُها عن ابتسامة شاحبة، أخذت تتلاشى بالتدريج كلّما قرعَ البابَ وجاوبَه الصمت برنين بغيض. نكس أخيرًا رأسه وغمغم وهو يواصل السير إلى مغارة قريبة يتوافد إليها نهرُ الهاربين من الثلج والزمهرير.

ـ ما الفائدة إن كانت جلودُنا ذاتها لا ترحم!

شدَّهُ أبوه على كتفيه ومضى يغوصُ في الثلج حتى الركبتين إلى المغارة.

مولدُ الفَرح

أخيرا تمكّن من إجبـار هذا الأستاذ المتهجم على الدوام أن يبتسم. لذا اجتـاحتـه الـدهشـة... قبل أن يأتي هذا العمل الصعب داهمتـه الـرهبـةُ والخـوف. هذه المرة الثانية التي تفترسه الرهبة. كانت الأولى قبل شهرين حين قبضَت أمُّه على معصمه وسحبَته إلى أكبر خيمة. أدرك لمَ اشترت له ثوبًا جديدًا غير ذاك الذي اختفت آثارُه بفعل رقاعٍ سوداء وحمراء؛ وأخرى أصابته بعمى الألوان. اشترَت له الثـوبَ واستردت الثمن فورًا من أعصابه حين لوّحت له بالمـدرسـة. لقد بلغَ السادسةَ وأبوه يدعوه إلى أن يحمد ربَّه، فلولا النكبة ما تسنّى له التمييز بين خفِّ الجمل وبين الرغيف.

ظل طولَ الطريق يتهيأ للبكاء بينما ترسل إليه أمه من عينيها ويدها القابضة على معصمه إشارة التحذير؛ بأنها ستبلغ والده أنّه تخلى عن رجـولـتـه وبكى. يعـرف كـم يـكـره والـدُه أن يبكي الـرجـال.

تحايلَ على الدموع مرددًا أنه رجل وبأن أمه لا تروم له إلا الخير؛ ولكن حصـونَ ثبـاتـه تهـاوت أخيرًا حين طالعتـه وجـوهُ الصبية المعفّرة بالتراب، ووجهٌ آخر متجهمٌ، شديد الصرامة... خاطبتـه أمـه بأستـاذ. بكى وشـدّ ثوبَها الممزق محاولًا العودة إلى الخيمة الصغيرة، يلملم ما حولها التراب

ويبني بيتًا بقبّةٍ عالية كانت آخر ما شاهده في بلدته البعيدة؛ التي يقولُ أبوه أن مَن يذهب إليها يقتله اليهود.

كانت تلك أول مرة يبعثـرُه الخـوف، ولمـا اعتـاد المدرسة لم يقلقـه شيء قدر سحنة الأستاذ المتجهمة على الدوام. ولكن تأكّد له أن كلامَ أبيـه صحيح. فهو يستطيع أن يمسك بكتاب المطالعة غير مقلوب. باستطاعته أن يقرأ الحروف فينتزع ضحكةً مُبتَسـرةً من صدر هذا الأب المُثقل بالأحـزان. بات في المدة الأخيرة يراه يضحك بحساب. يشير إلى حرف الألف متباهيًا.

ـ إنه يشبه العصا.

ويضع إصبعه على حرف الباء ضاحكًا.

ـ أما هذا فمثل صحن العدس، أو إن شئت فمثل طاقيتي هذه.

ويبرم الـطـاقيـّة المصنوعة من وَبر الجمال بين أصابعه الخشنة قبـل أن يعيدها إلى رأسه الحليق؛ ويرمي فوقها الكوفيّة والعقال... يضمّه إلى صدره.

ـ أستطيع أن أتعلَّمَ بهذه الطريقة في نهاية الأمر.

ثم يتنهد بحرقة وتتلبدُ على وجهه غيوم الحزن.

- طول عمـري وأنـا أسمع أن العلمَ نور، ولكن الإنجليـز كانوا يحبّون لنا الظلمة... لم نتعلم... الإنجليز! آخ.. آخ.

ويربتُ على كتفِه مُشجعًا.

- تعلّم يا بني... تعلم... فالعلم نور.

ثم يصرخ فجأة.

- اكتب فلسطين.

يبسط الصغيرُ يديه حيرة.

- لا أعرف. لم يعلّمنا الأستاذ كيف نكتب فلسطين.

يقلّب الأبُ عينيه فيمن حوله من الرجال ويزعق.

- هذا الأستاذ ملعون. عليّ الطلاق أنه ملعون.

ويمسك بأذنه يضغطها بقسوة.

- عليك أن تتعلم كيف تكتب فلسطين. أطلب من هذا الأستاذ المُغفّل أن يعلمك. أطلب ذلك منه بإصرار... وما فائدة العلم كلّه إن لم تعرف كيف تكتب فلسطين؟!!

يتحوّل الرجال من حوله إلى خلية نحل.

- لقد كُتِبت آلاف المرات.

- وسمعناها من الإذاعات ملايين المرات.

- وجاءت الجيوشُ تهتف «فلسطين، فلسطين».

- وماذا كانت النتيجة؟

يهز رأسه متبرمًا.

- إننا نطالب أبناءنا أن يكتبوها ويرددوها. أبناؤنا نحن؛ وأنا أعرف ما أقول.

يعود إلى ضغط أذنه محذرًا.

ـ عليك ألّا تسكت عن هذا الأستاذ المغفل. هل تفهم؟

يهزُّ رأسَه موافقا. غير أنه لأمر ما شعر أن مثلَ هذا الطلب لن يمرَّ دون أن تأكلَ عصا الأستاذ من جسده وجبةً كاملة؛ ولكنه رأى أن ذلك أهون من أن يسحبَ أبوه منه الثقة؛ وقولَه له في كل مناسبة أنه رجل. لو ترددَ سيحرمه من الجلوس مع الرجال ومِن شرب القهوة وسماع حكاياتهم عن تلك البلدة التي يحبها؛ ولم يعش فيها طويلًا تحت قبة البيت العالية، فيختزن مثلهم ذكرياتٍ حلوة يحكي عنها.

اجتاحه الخوفُ وهو يحدّق إلى ظهر الأستاذ الملتصق باللوح، وحين أدار وجهه العابسَ استباحه رعبٌ مدمر. سحبَ

المؤشّرَ على حروف وكلماتٍ داسها لسانُه مرارا وتكرارًا من قبل.

انطلق ببصرهِ إلى أفواههم الصغيرة وهي تتلوى بغير إرادة. أحس أنها جنايةٌ لا تغتفر لو فعل مثلَهم. انتهز فترةَ صمت ثقيلة. تململَ في جلسته ثم نهض قائلا.

- أستاذ! لم تعلمنا كيف نقرأ أو نكتب فلسطين!

فغرَ الأستاد فمَه واستباحت وجهَه خيولُ الدهشة، ما لبثت أن فرّت هاربةً من وجـههِ ابتسامةٌ عريضةٌ أضاءت وجهَه كلَّه.

ناداه وربتَ على كتفه بمودة.

- سيأتي دورُها. لا تتعجل... قُدسيَّةُ الاسم تتطلبُ منّا ألّا نتعجل.

حمَله الأستاذ وأجلسَه مكانه تزفّه ابتسامات الدهشة والعجب من الصبيـة؛ وقد تمكّن واحدٌ منهم أخيرًا أن يجبر هذا الأستاذ المتجهّم على الدوام أن يبتسم.

مشاتلُ الخَوف

طفولتُه المُبكّرة مرَّ نصفُها في معاناة الخوف، والنصفُ الآخر في تذكّر هذا الخوف. الإغراق في التذكر ثم الضحك الذي لاينتهي بالدموع، تتسللُ من القلب مباشرة تنعى البراءةَ والمرح والانطلاق.

يضعُ أيامَه الحاضرة، الشباب وعتبةَ الكهولة في الحجر الصحي. موجباتُ الخوف القديم تبدّدت بيد أنها ما زالت ماثلةً في أمور شتى؛ سواء أَفَتَح عينيه أم التحَمت بأشفارهما القاحلة من الرموش. حين يغلقُها يصاب بالعمى، لا يرى من الأشياء عدا ما يخيف وما يبعثُ الرهبةَ في النفس. المخيم، وكالة الغوث، طابور المؤن، الآمال التي تمر عليها الفصول تباعًا عواملُ تعريةٍ تفتتُ الصخر، آمالٌ تزفّها الجرائد والمذياعُ وتكون هذه أول القادمين للمشي في جنازتها الدائمة. إنه التشتتُ مرة أخرى، إنه الخوف يبرطعُ في الطرقات مثيرًا زوابعَ القلق.

قديمًا كان الخوف يأتي سريعا ويذهب كما أتى، يهب عاصفةً مدمرة يقتحمه بلا استئذان، تهتزّ ركبتاه وترتعد فرائصُه دونما تحليل للمسبّبَات والنتائج. كان هذا يسبب له الانحدارَ إلى حجر أمه بعيدًا عن الصغار، كان يسببُ له الموت.

الموتُ كما يفهمه غطاءٌ سميكٌ يُخفي به رأسَه كيلا تأتي «الغولة» وتأخذه بعيدًا لأنه لعبَ مع ابنة عمّه ضدّ رغبة

أبيه... كان أبوه دائمًا يحذره من اللعب معها أو من الذهاب إلى بيتها، بيتِ عمه.

- إياك واللعب معها، إنها مثلُ أبيها حاقدة، موتورة، وستدخل مثلَه النار.

وقالت أمه.

- إن لعبت معها ستأكلك «الغولة».

كان هذا حين جاءت سارة مع أبيها إلى البيت. لعب معها تحت الدالية وأحبها. أول مرة يراها. ناداها «ابنة عمي» وقالت إنها تحب أن تلعب معه؛ ولكن والدها يحذّرها من المجيء واللعب، ويقول لها إنه مثل أبيه «عمها» حاقد موتور وسيدخل النار، وقالت إنها لا تخشى «الغولة» إن هي لعَبَت معه ولكنها تخشى أباها. مع هذا لعبت تحت الدالية غير عابئة بالزعيق يهدر من البيت.

لعب معها مؤكدا أنه يحبها وسيزورها ولو أكلته الغولة التي تحدثه أمّه عنها كثيرًا؛ ويقول أبوه إنها ترقد في قبر دارسٍ على الطريق إلى بيت عمه، تنتظرُ الأولاد هناك، الأولاد الذين لا يسمعون كلام آبائهم.

اهتزت الداليـةُ كأنما ارتطمت فيها تلك الأصوات الغاضبة الصادرة من البيت؛ وشـاهد عـمَّـه يخرج ملوّحًا بقبضته ثم وهو ينقض على «ساره»؛ يسحبُها من يدها ويمضي محذرا إياها المجيء أو اللعب معه. شاهد والده يخرج في إثره، يبصق بينما أمه تُطيّب خاطرَه بقولها إنَّ صحته أهمُّ من الغضب، أهم من الأخوة كلّهم.

أرّقته فكرة أن لن يرى سارة. اقترب من أبيه وأعلن بخوف أنه يحبها فتصدى له بعينين حمراوين من الغضب، وأمرَه بأن يخرس.

- إياك أن تراها أو القول أن لك ابنة عم.

وراح يتناثر من شدقيه الزبد.

- يريدُ أن يأكلَني في عزّ الظهر، أخذَ أحسنَ الأرض ويطمعُ في البئر الوحيدة التي بقيت لي.

ولأنه سمع مثل هذا الكلام مرارًا من قبل؛ لوى عنقَه إلى الدالية، فلاحقه صوتُ أبيه غاضبا.

- ذلـك الـرجـل ليس عـمـك وابنته مثله ماكـرة، طمّـاعـة ومخادعة، ملعونة.

تحسس الدالية، ألفاها باردة كالثلج ففارقته شهيته للعب. أقعى بجانبها يغالب البكاء ويسأل نفسه: كيف أرى ساره دون أن تأكلني «الغولة» أو أدخل النار؟

لقد ذهب ذلك الخوفُ القديم، ذهبت دوافعُه ولكنها تناسخت بأشكال عديدة، تلتهمه نارُها، كما يطالُ لهيبُها أولادَه... إنه ما يزال كأمهم يحكي عن «الغولة» التي تأخذ الأولادَ الذين لايسمعون كلام آبائهم. يراهم يغطون رؤوسهم، كما يرى طلباتهم الصغيرة تتطوّح في عيونهم، ويسمع ارتطامها على أرض المخيم، يستبيحُها الموتُ والعفن. يسأل نفسه مرارا متى يخرج ومتى يخرجون من دائرة الخوف؛ ليلعب ويلعبون في نهارِ شمسُه عصفورةٌ تصدحُ على شجرة اللوز وبين الدوالي؟

لقد طلّق خوفَه القديمَ أو تركه الخوف، ولكن ها هو يعود ثانيةً بصور شتى، ينمو ويمتد في مشاتلَ شاسعةٍ أوسع من رقعة المخيم بكثير... حاول مرارا أن يكسر تحذير والديه، مشى في الطريق إلى بيت سارة، في كل مرة ينتصب له القبر الدارس، تندفع منه «الغولة» ولا يخلّصه منها غير الهرب والانزواء في حجر أمه، تمسح شعرَه قائلة بصوت عميق مرتجف.

ـ أمَا حذرتك؟ أمَا حذّرك أبوك؟!

تكرّرت المحـاولـةُ وتكرر الخوف والهرب؛ إلى أن كانت آخر مرة. رأى سربًا من الدجاج ينبش في القبر، وديكًا يرفع عقيرتَه بالصياح. تسلل إليه بعضُ الشجاعة طاردةً الخوف. غذَّ المسيرَ إلى أن هربت الـدجاجات ووقف على القبر مباشرة. لم تخرج الغولة، لم تأكله كما لم يدخل النار كتلك الأرغفة التي تدسُّها أمّه في الفرن. هرول إلى بيت عمه فرحًا. وقف بالباب ونادى.

- سارة... سارة.

اندفعت من الباب يزفّها الفرح البريء؛ في اللحظة نفسها سحبتها يدٌ غليظة، وبرز له وجه عمه صارمًا مقدودًا من صخر.

ـ ماذا تريد يا ابن الكافر؟ اذهب.

لوى عنقـه مُطـوّقًا بالحزن، وكان هذا آخر عهده بسارة وبعمه قبـل أن يأتي الـزلـزالُ ويقتلعَ الدالية؛ ويزرعَ القبورَ بجانب القبر الـدارس. ثم رأى سارة كما رأى عـمَّـه ووالـده يـتـعـانـقـان في الطريق المؤدّية إلى الغور فيما الرصاص يلعلعُ نزقًا في الطرقات والأفق. قالا بصوت واحد مذبوح.

- لقد ضاعت الأرض... أرضنا طحنها اليهود.

وانخرطا في بكاء مُرّ على صخرة سرعان ما نَفضتهُما عنها ليغذّا السير هرولة.

لقد حكى لأولاده عن رحلة الضياع هذه، كيف بدأت وكيف لم تنته بعد. حكى لهم حكاية «الغولة» والقبر الدارس؛ ولكنه لأمر ما لم يحكِ عن الدجاجات النابشة في القبر، والديك الذي يرفع عقيرته بالصياح. وإذ أرَّقته هذه الحقيقة أضمرَ أن يوقظَهم في الصباح ليحكي لهم عما فاتهم سماعه؛ مؤكدًا على أنهم بغير هذا سيظلون في المخيم، وتظل طلباتُهم الصغيرة تتطوّح في عيونهم قبل ارتطامها بأرض يستبيحها الموات والعفن.

الفَواصِل

يعرفونَه في المخيم عاقلا متزنًا حلّال المشكلات المستعصية. فقره الدائم مثلهم لم يخرجه عن طوره. أهم ما يميّزه أنه صابرٌ يفتحُ بابتسامته كلَّ صباحٍ مدرسةً للصبر على الجوع والعري والمرض. ينثرُ الكلام موزونا عن فضائل التروي والتسامح والإخاء. لذا لم يصدقوا أنه هو من يضع ثوبَه بين أسنانه، يركضُ في الأزقة ملوّحًا بالهراوة وصارخًا بصوت هادر مذبوح.

ـ سأقتله. اتركوني، سأقتله.

حاولوا الإمساك به. راغ منهم بين الأزقة ساحبًا ذيلا طويلًا من الغبار والصِبية، صبيته الحفاة العراة. لحقوا به ليروا من هذا المعني بالقتل؛ ولمّا لم يجدوا له أعداء قالوا «إنها حياة المخيم أخرجته عن طوره، ولكل منها لحظة انفجار مدمرة، وقد جاءته لحظة الانفجار».

تبعوه لاهثين تُثيرُ قدماه المتسارعتان الغبارَ في حلوقهم وأنوفهم، وهو بدوره يثيرُ زوبعةً أخرى تركض أمامَه فيما صراخه الهادرُ يجعل من المخيم زورقًا يترنح في بحرٍ متلاطم الأمواج.

انجلت الزوبعةُ الكُبرى عن كلبِه الرمادي الضخم. استبعَدوا أن يكون هو المعنيَّ بالقتل... يعرفون مدى حبّه له وتفضيلَه إياه على أولاده. دائما يلهجُ بوفاء الكلاب وكلبِه بالذات. استبعدوا ذلك وحين علا نباحُ الكلب شرسًا متحديًا رأوهما من خلال الغبار يتصارعان. ثم رأوه يخرج من المعمعة بقميـاز ممزق، ووجهٍ ينضح بالعرق، فيما يده القابضة على قطعة لحمٍ تجرَّحَت وتفصَّد منها الدم. توقعوا أن يسقطَ على الأرض مغشيّا عليه؛ إلا أنه لدهشتهم راح يبتسم في وجهِ صغاره قبل أن يتركهم يزفونه إلى الخيمة.

المِعطَف

هي بعينها... لمَن يُقسِمُ أنها هي؟ لوالده؟ لأمّه؟ لمدير المخيم؟ أم لمعزوز صاحبه المنكوب؟ إنها بعينها، ما في ذلك شك. أبوه وأمُّه ليسا بحاجة إلى القَسم وأحدهما تربّص بالقتيل والآخرُ أطلقَ عليه الرصاص. أما المديرُ فيمشي في الجنازات المتتالية بقامته المديدة ورأسه المحني؛ على الحقد والخبث قارئًا عليها الفاتحة التي أشك أنه يحفظها.

إنها هي تلك الصرّةُ التي أفرغ أحشاءها الدسمة بيديه فيما والده يستحثه على الإسراع. إنها هي وهذا المعطفُ الأصفرُ الملفوفة به، معطفُ أمه، ألقته على كتفيه حين خرجَ في الليل مع والده إلى الدار الحمراء الكبيرة حيث أفرغَت الشاحناتُ أحمالَها من الملابس الجاهزة، تتصدق بها وكالةُ الغوث كلّما أطلَّ الشتاءُ برأسه مُنذرًا ببرد ينخرُ العظام.

لقد رفضَ في البداية أن يذهب، هددَه والدُه بالذبح فنهض من الفراش مصممًا على أن تكون المرة الأخيرة، بيد أنه لم يدر أن سيطعن صديقَه «معزوز» في الصميم، وأن سيكون هو السببَ المباشر في حرمانه من هذا المعطف الأزرق الجديد الجميل..

لقد أخرجَ هذا المعطف بيديه من الصـرّة الكبيرة ولبسَـه. أخـرج أشياء أخرى كلها جديدة، وضعهـا جانـبًا كـما أمـرَه أبـوه، كما يأمره بذلك كلَّ مرة تأتي فيها الشاحنات إلى الـدار الحمراء.

لقد حزن كثيرًا. كان كل مرة يحزن، ولكن المـرَّة حـاصـرَه الحـزن فقـرر أن تكون الأخيرة، وإذ أطبق الحزنُ عليه بفكيه حين أتت تلك الصرةُ من نصيب معزوز ندِمَ على أنه لم يترك والـدَه يذبحُـه على أن يغشَّ الناس ويسرقَ أرزاقهم.

لقد قررَ أن تكون الأخيرة ولكنه لم يدر أنها ستكون القاضيةَ حيث غشَّ وسرقَ أحبَّ الناس إليه، صديقه معزوز. رآه محشورًا في الطابور الطويل الهادر بالأمل، ثم رآه يخرج بتلك الصرة الصفراء، ينثرها بلهوجة قبل أن ينحرَه اليأس موقنًا أن هذا الشتاء أيضا سيكون قاسيًا عليه وعلى أخوته الصغار.

لم يطق أن ينظر إلى الصرة أكثر وقد تحوَّلت بين يدي صديقه إلى جثة فارقتها الحياة. هرب الى البيت متمنيًا أن يجد والده فيكيل له السباب. ألفى أمّه فصرخ فيها.

ـ أنت جشعة، مجرمة.

أطلق رصاصاتِه السريعة، تركها في صدر أمه. انفلت إلى حجرته يبكي ويضرب رأسه الجدار. انهالت عليه جيوشُ الندم أكثر لأنه لم يترك والده يذبحه؛ فيخلصه من عذابٍ مضنٍ يفترسه آخر كل شهر، وفي كل شتاء حين تأتي الشاحناتُ إلى مركز توزيع المؤن بالدقيق والسكر، أو إلى الدار الحمراء بالملابس...

تذكّر دقائقَ تلك الليلة الأخيرة كأنها تحدث الساعة أمام عينيه. حاصره الندمُ أكثر إذ اكتشف أنه لم يُصر على الرفض كما يجب؛ وإلا لتركَه أبوه نائمًا دون ذبح، فهذا الأب ذاته كان مهزوزا يعتصره الخوفُ، خوفُ السارق من افتضاح أمره في نهاية المطاف، وخوفُ من يشعر يقينًا أنه لا يأخذ من الجمل الكبير العريض غيرَ شعرات من ذيله القصير، أما الجملُ فيذهب معظمه إلى مدير المخيم والباقي إلى الشرطي الذي يرى نملَ المخيم نملةً نملة؛ ويسمع دبيبَه ثم يصيبه العمى والصممُ فجأةً آخر كلِّ شهر؛ في كلّ شتاء حين تأتي الشاحنات إلى مركز التوزيع، أو إلى الدار الحمراء الكبيرة.

كان أبوه يصرّح لأمه إحساسه بالغبن وبالخوف أيضا من أن يذهب ضحية المنتفعين فيتخلون عنه. لاحظ خوفه واهترازه بجلاء في تلك الليلة بالذات فندم أكثر على أنه لم يواصل الرفض والصمود في وجه هذا الأب الغبي الجشع.

كان الليل ساعتها في النزع الأخير والريح تزمجر غاضبة تحملُ بجيشها الجرّار على بيوت المخيم، تلوى أعناقَها، تدوسها ماضيةً بعوائها الرهيب إلى الأشجار المحيطة بالدار الحمراء؛ تردها خائبةً مدحورةً إلى بيوت المخيم فتمارسُ من جديد عنفوانها وسطوتها.

هجمة شرسة لم يشهد الغور مثلها منذ أن نبتَ المخيم تحت أقدام جبل التجربة في عنق أريحا. معركة غير متكافئة تدور رحاها بين سماء غاضبة لأمر ما وبين بيوت طينية ساجدة على أصحابها سجودَ الرهبة والخوف. معركة دائرة منذ خمسة أيام رغم البرد والمطر والعواصف.

خرج أهلُ المخيم كبارًا وصغارا يستقبلون الشاحنات وهي تفرغ أحمالَها في الدار الحمراء، كادوا يتخاطفون ما فيها لولا أن وقفَ لهم المديرُ بقامته المديدة مستعينًا بالشرطي الذي يعرفون طعم عصاه السوداء في مناسبات عدة؛ سيما حين ينحشرون في طابور المؤن أو حين يخرجون في مظاهرة ليفرّغوا ما في صدورهم المتخمة بالقهر؛ لولا أن تجعلها تلك العصا قصيرة حاسمة، لاهثة الأنفاس. لهذا آثروا السلامةَ وعادوا إلى البيوت بانتظار الفرج، بانتظار أن يكتسي الصغير والكبير ومن في طَورِ الرضاع ملابس كثيرة تفرش أرض المخيم مرتين على الأقل.

شـاهـد والـدَه يزجـرُ الناس على تهافتهم ويُمنّيهم بالصبر، فالملابس لن تطير. اغتمَّ لهذا الدور المخـزي الذي يمارسه والده، اغتمَّ أكثر وهو يرى وجه صديقه معزوز طافحًا بالأمل، وأن يضعَ فوق هذا القميص الشفاف الخلق سترة أو معطفًا يتقي به البرد ويمنع أسنـانَـه من الاصطكاك..

حمَلَ غمَّه إلى البيت، حاول النـومَ فظلت عصـا الشـرطي ووجه أبيه، ظل وجه معزوز يطاردُ النـومَ بهراوةٍ سرية فترتدُ اليقظة إلـيـه قـلقًـا واضطرابًا ويأسًا من صلاح هذا الأب؛ ومن قدرته هو على الرفض .

كانت في البداية لعبة مسلية، كانت هواية ثم أضحت احترافًا قبل أن ترتدَ إلى حضن القلق والـرفض، قبـل أن يسقطَ في شدقي ضميره... تساءل وأبـوه يسحبُ عن وجهـه اللـحـاف أنْ متى سيستيقظ ضميرُ هذا الأب؟! وحين جاءت أمُّه تعاون زوجَها على تقريعه أيقن أنهما لن يتركاه هذه الليلة أيضًا.

أيقن أن والدَه لن يرتدع عن غيّـه ما دامت أمّـه من خلفه تحثه على السرقة، ينقلب الطحين والسكر والملابس على المائدة لحمًا وخضارًا وفاكهة، وفي معصميهـا وحـول عنقها أساور وقلائد تميس بها في المخيم لتحرق قلوبَ النساء والرجال على حد سواء.

أدرك أن إمعانه في الرفض لن يجدي نفعا ما دام قد نُكِبَ بهذا الأب وهذي الأم، لايعرفان بعد مدى عذابه كلما انتهى مع والده من عملية سطو، وكلما طالعته عيونُ الزملاء في المدرسة، وعينا صديقه معزوز على وجه الخصوص...

هاتان العينان المنحورتان بالفقر واليأس تذبحانه ذبحًا بما فيهما من مشاتل هذا الفرق الهائل بين ابن عامل في بيارات الموز؛ براتبِ سبعة دنانير، وبين ابن موظف صغير في الوكالة بعشرة دنانير لا تنهض بهذه الملابس الفخمة؛ ولا بحقيبة الجلد المحشوة دائما بالبسكويت والحلوى والتفاح وأصناف الفاكهة؛ التي لا يراها إلا على الأشجار المنعوفة بين المخيم وأريحا. يحاول أن يعقدَ معها صداقةً ليتفرجَ عليها فتهزُّ أكتافَها رافضةً استعراضَ مفاتِنها أمامه.

طوّح أبوه باللحاف وصرخَ فيه أن ينهض. قالت أمّه.

- هيّا يا بني واخزِ الشيطان.

جمع الغطاء، التفّ به قائلا:

- الشيطان هنا. في هذا البيت اللعين.

حدّق أبـوه في السقف يستجـدي الصـبر وكـل دقيقة انتظار تعني انفجار الصبح وتبديد خططه في الهواء. عندها سيقع فريسة المـديـر الذي يحسب حسـابًـا بدوره للشرطي. دمدم صوته وهو ينقضّ على الغطاء ثانية.

- من يرفس هذه النعمة غير مجنون؟

أحنت أمّه عليه. صلصلت الأساورُ والقلائد في معصميها وعنقها. انهالت الصلصلة في أذيه ذرات من الحديد المُحمّى.

- هيا يا بني... هيا.

وإذ تلقّى من عيني والده نظرة إنذار نهائي نهض متثاقلًا. انفرجت أسـاريـرُ أمـه وألقت على كتفيه وهو خارج في إثر والده معطفها الأصفر لسببين؛ أحدهما وآخرهما أن يتقي به البرد.

راح يشقُّ العتمة بضمير أثقله الصحو. يضـربُ الأرض بغلظة يهيب بالنائمين على آذانهم أن يستيقظـوا فيقبضوا على الموظف المحترم وابنـه بالجرم المشهـود. عندها سيستريحُ ويتخلص من عيون الصغار المثقلة بالحزن، ومن عيني معزوز بما فيهما من شكٍّ أخرس لم يفصح عنه.

كانت الصـررُ منعـوفـةً في القـاعـة الـواسعـة، تتمطى بين الجدران الـعـالـيـة حتى تنطـح برأسهـا السقف. علمته التجربة

دورَه بالضبط بيد أن فتوره هذه المرة اضطر والده اإلى تكرار ما يجب عليه عمله.

- افتح كل صرة على حدة والق الجديد في الزاوية هناك.

يقظةُ الحواس وربما يقظة الضمير هي ما جعلت تلك الصرة الـزرقـاء تتجمع في رأسـه. أخـرج أحشاءها، ارتدى المعطف الأزرق. من نظرة واحدة أحس أنه على مقاسه. ارتداه ووضع بدلًا منه معطف أمـه الأصفر بعدما ألقى في الزاوية كلَّ جديد في تلك الصـرة، واستبـدلَـه بما جمع أبـوه في الـزاويـة الأخـرى من ملابس رثة؛ وإحساس بالخزي يحاصره من كل اتجاه.

اعتصـره النـدمُ بـيـد أنه لم يكن يظن أن ذلك المعطف الأصفر بالذات سيقع بين يدي معزوز، إنها هي تلك الصرة الصفراء تشرع أصـابعـهـا في عينيه. حاول أن يمتصَّ الإحساس بالقهر والغبن على وجـه معـزوز؛ بأن يخلعَ عنـه معطفه الأزرق ويلقيـه عليه، ولكنه انفلت إلى البيت بعدما أيقن أن ليس هذا هو الحل.

تمت.